

صلى الله عليه وسلم

محاولة لفهم السيرة النبوية

مصطفى محمود

الطبعة العاشرة

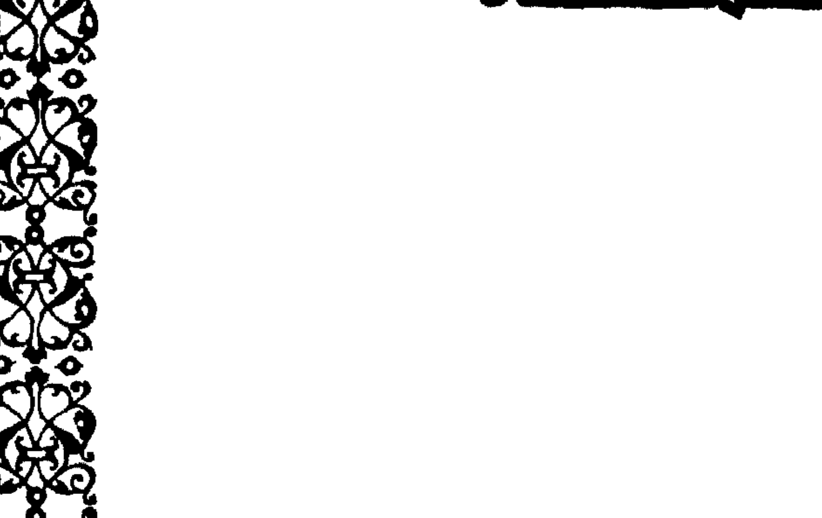


دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

محمّد







« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ » (البقرة : ٢١٣) .

هكذا بدأت الحال بالناس أمة واحدة على الجهل والمادية والكفر وعبادة اللذة العاجلة ، لا يؤمنون إلا بما يقع فى دائرة حواسهم ، ولا تتجاوز أشواقهم دائرة المعدة والغرائز ، ثم نزلت الكتب والرسل فتفرق الناس بين مصدّق ومكذب ، بين مؤمن وكافر ، واختلفوا شيعاً وطوائف .

هكذا يروى لنا التاريخ من آدم إلى نوح إلى إبراهيم إلى يعقوب إلى إسحاق إلى إسماعيل إلى موسى وعيسى ومحمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .

ثم مرت قرون وقرون بالإسلام ضعف فيها شأن الأديان ، واستدار الزمان كهيئته الأولى يوم خلق الله السموات والأرض ، وعادت الجاهلية تلف الناس فى ليل مظلم ، هذه المرة جاهلية أشد كثافة وغلظة من الجاهلية الأولى . . هى جاهلية القرن العشرين المتنكرة فى ثوب العلم المادى وغروره . . يتبجّح بها ناس مشوا على تراب القمر ، وشيّدوا ناطحات السحاب ، وغاصوا

إلى قيعان البحر ، وانطلقوا إلى أقاصى الفضاء ، وخضروا الصحارى ، وزرعوا الأجنّة فى القوارير . وظنوا أن علومهم من عند أنفسهم ، فأخذهم الكبر والزهو ، وتصوّروا أنه قد حان الوقت ليهزموا الموت ، ويبلغوا الخلود ، ويفرغوا من الأمر كله .

كاد الناس فى هذا الزمان يعودون إلى الجاهلية الأولى أمة واحدة على الإنكار والكفر ، يبتسم الواحد منهم فى سخرية إذا رأى من يصوم أو يصلى ، ويقول فى نفسه : هذا العبيط . . لمن يصلى ؟ . . ويرى فى الإيمان بالغيبيات سذاجة وغفلة ، ويرى الذكاء والفطانة والعلم فى رفض هذه الخزعبلات والأساطير .

فى هذا العصر ظهر لون جديد من كتب السيرة يحاول فيه الكاتب أن يجرد محمداً عليه الصلاة والسلام من كل ما هو سماوىّ غيبى ، ويتصورة فى غار حراء وقد اختلى بنفسه لا ليناجى ربه وإنما ليتأمل أحوال البروليتاريا فى قريش ، ويفكر كيف يستنقذهم من مظالم السادة بشريعة جديدة ، وقد جعل من النبى العظيم شيئاً كجيفارا ، ومن الإسلام شيئاً كثورة اجتماعية ، وظن بهذا أنه كان علمياً فى استقصاء حياة محمد . . وأنه باستبعاده حكاية جبريل ونزول القرآن إملاء من عند الله ، وإسراء النبى إلى المسجد الأقصى وعروجه إلى السموات العُلا — ظن بهذا أنه خدم العقيدة ، ورفع من شأن رسولها . . وأنه كان يتكلم لغة العصر ، ويخاطب الكافر بلغته . . والحقيقة أنه لم يكن يخاطب الكافر بلغته ، بل كان يصانعه ويداهنه ويتألفه بالكذب والتزييف ، وينزل بنبيه إلى درك السياسيين المغامرين ، ويجرده من العصمة والقداسة .

وحجته فى ذلك ما قال الله لمحمد فى القرآن :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » .

وليته أكمل الآية :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ» (الكهف : ١١٠) ، فهذه التتمة تنفى المثلية التى تصورها كاتب السيرة ، فمحمد بشر مثلنا وليس بشراً مثلنا . . لأنه يوحى إليه ونحن لا يوحى إلينا بشىء . . وإنما نحن أصحاب اجتهاد على الأكثر . . أقصى ما نحلم به هو انقداح الفكر وفيض الخاطر.

وهذا الفرق الدقيق هو سر النبوة

إن النبى مثلنا وليس مثلنا .

هو فى حضرة الملأ الأعلى والملكوت يرى جبريل رؤية عين ، ويسمع منه ، ونحن فى الحضرة الأرضية ، وفى الحضيض البشرى محجوبون لا حظَّ لنا فى هذه المرائى العالية .

هو برزخ بين الشهادة والغيب .

ونحن على شاطئ الشهادة والمحسوس لا نكاد نطل على البر الآخر إلا فى حلم أو شطحة أو كرامة .

وهذا هو الفرق بين النبى والولى والمصلح الاجتماعى .

النبى جليس على المائدة الربانية يتلقى من ربه الكلمة والتشريع والتكليف . . وهو معصوم لا ينطق عن الهوى .

والولى كل حظه لحظة شفافية وإطلالة خاطفة من باب موارب ما يلبث أن يعود فينغلق ، وليس له عصمة ولا تكليف ولا تبليغ .

والمصلح الاجتماعى من أهل الاجتهاد مثله مثلنا ، وحظه حظنا ،

يخطئ ويصيب ، ولا عصمة له ، ولا خروج من دائرة المحسوس ، ولا تحليق إلا بالخيال والحدس والتخمين .

وأى فرق هائل بين هذه المراتب ؟ . . تكاد كل مرتبة تكون فى فلك .

وأى سقوط بالنبوة إذا نحن جردناها من هذه الصلة الربانية ؟ . . وماذا يبقى من الدين إذا جردناه من الغيب ؟

إنه التكذيب بعينه وقد أخذ صورة العبارة العلمية الملفوفة. ألم يصف الله المؤمنين بأنهم :

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » (البقرة : ٢)

فجعل شرط الإيمان هو الاعتقاد بالغيب .

« وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِه وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً » (النساء : ١٣٦) .

فالإيمان بالملائكة شرط صريح للإيمان بالله .

ولكنها مادية العصر تسللت إلى كل شيء حتى إلى فهمنا للنبوة . . وأصبح الكاتب العصرى يتصور أنه يكون أذكى وأفطن إذا تكلم عن محمد عليه الصلاة والسلام كما يتكلم عن أبراهام لنكولن ، فهذا هو الفهم العلمى للأمر.

وما هو بالفهم العلمى ولا الموضوعى .

فكل نبى مصلح ، وليس أى مصلح بنبى مهما بلغت إصلاحاته . لأن جوهر النبوة ليس الإصلاح ولا التعمير . ولكن جوهر النبوة هو هذه

الصلة المبهمة بالله وبغيبه المغيب ، هو هذه الحالة البرزخية بين الطبيعة وما وراء الطبيعة .

هذه الحالة التى تجعل من النبى مستمعاً من نوع فريد يتلقى الإلهام من آفاق أعلى لا يرقى إليها غيره .

ولهذا يحتاج النبى إلى إعداد روحى يختلف تماماً والإعداد العقلى الذى يحتاج إليه المصلح الاجتماعى .

فإذا كانت عدة المصلح الاجتماعى هى الدراسة والخبرة والعكوف على المراجع وأمهات الكتب المتخصصة ، فإن عدة النبى مختلفة تماماً . . فهو فى غير حاجة إلى الدراسة والعكوف على الكتب ، وإنما إلى إرهاف السمع إلى الكون ، وتجريد قلبه من الشواغل ، وتخليص همته من التشتت فى توافه الأمور ، والخروج بنفسه من شدّ وجذب الرغبات والنزوات والشهوات ، وجمع الهمة وتركيزها فى طلب شىء واحد هو حقيقة الحقائق . . الله سبحانه .

ولهذا يخرج إبراهيم إلى الفلوات يتأمل القمر والنجوم ، ويخرج المسيح إلى البرية ، ويصوم موسى أربعين يوماً لميقات ربه ، ويختلى محمد فى الغار .

لم يعتزل محمد فى الغار ليقوم بدراسة البروليتاريا فى قريش كما زعم أصحابنا . . وإنها لنكتة تدل على مدى ما بلغت عقول الماديين من سطحية وخواء ، فلم يكن فى قريش صناعة ليكون فيها بروليتاريا . . وإنما كان فيها أرقاء . . وكانت تأتى الحروب القبلية فتجعل من السادة رقيقا ومن الرقيق سادة هكذا فجأة دون أى مضمون طبقى فى الموضوع . . الغالب يجعل من المغلوب رقيقاً وسبايا حتى تدور عليه الدوائر فتنقلب الأوضاع .

وقد جاء محمد وفى المجتمع القرشى رقيق ، وترك محمد الدنيا وفى قريش رقيق . . وكان لمحمد – عليه الصلاة والسلام – فى حياته سبى ورقيق من غزواته . . إذن لم يكن همّ محمد فى الغار وما بعد الغار مسألة السادة والعبيد . . وإنما كان همه الوحيد هو معرفة الإله ثم التعريف به واحداً لا شريك له .

ولم تكن معركة الإسلام هى التغيير الطبقى ، وإنما كانت معركته هى الانتقال بالعقول من فكرة تعدد الآلهة إلى فكرة التوحيد ، ومن العبادة الوثنية إلى التجريد . . ولهذا حرص محمد – عليه الصلاة والسلام – بعد الإسلام على أن يثبت كل زعيم على زعامته وكل سيد على مكان الشرف فى قومه دون تبديل إلا أن يرفض تحطيم الأصنام ، فكان حينئذ نخلعه من ولايته .

وإنما جاءت الوظائف الاجتماعية للدين بعد ذلك حينما بدأت تقوم دولة جديدة موحدة فى حاجة إلى تشريع جديد وقوانين جديدة وعلاقات جديدة ، فنزلت الآيات الخاصة بالعدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة كما شرحنا إسهاب فى مكان آخر ، وسوف يعود السائل فيسأل :

ولماذا لا يكون محمد عبقرياً ملهماً ؟

ولماذا لا نرى فيه مصلحاً من طراز فريد ؟

ولماذا لا يكون السياسى والقائد والزعيم الذى لا يجود بمثله الزمان ؟

وكيف نقنع العقل العلمى البحت بحكاية النبوة هذه ، علما بأن مسألة جبريل ونزول القرآن من السموات مسألة لم يباشرها إلا محمد عليه الصلاة والسلام وحده ، ولا دليل لدينا عليها ، إلا أن نسلم بها تسليماً بلا مناقشة . . وهو أمر لا يرضاه العلم ؟

وربما أومأ السائلون موافقين .

نحن معك أن هدف محمد عليه الصلاة والسلام لم يكن التغيير الطبقى ، ولا كان شاغله فى الغار هو مسألة السادة والعبيد ، وسنوافق معك على أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يتأمل فى الحقيقة ، وكان يطلب ما وراء الطبيعة . . وكان يريد الله . . ولكن أو لم يكن هذا هو عينه مطلب الفلاسفة أجمعين من سقراط إلى أفلاطون إلى أرسطو إلى كانت إلى هيجل ؟

لماذا لا تراه واحداً من هؤلاء ، وبعضهم كان أمياً مثل سقراط .

لماذا تقول إنه نبى ؟ . لماذا هذا الإصرار على أنه نبى ؟

أعندك شواهد غير إيمانك يمكن أن تقنعنا عقلياً بنبوته ؟

وهى أسئلة مشروعة . . وهى تجرنا كلها جراً إلى موضوع ملامح النبوة فى حياة محمد . . وهو موضوع عشش فى ذهنى طويلا وأنا أطالع كتب السيرة وأطوف بين سطورها متأملا متدبراً سيرة الإنسان الذى غيّر الدنيا وعاش ومات كرجل بسيط متواضع .

ولن أحكى عن الخوارق التى ترويها السِّير عن حياة محمد . . فالإسلام لا يلجأ إلى الخوارق لإقناع الناس . . ومحمد كان يجاوب كل من يسأله الإتيان بخوارق قائلا : إنما أنا منذر ولست بصانع معجزات .

وخالد بن الوليد حينما أسلم مؤخراً ، وكان فارس قريش وسفاحها أيام الكفر ، وقف يقول :

« الآن استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه » .

كان العقل والمنطق إذن هما وسيلتاه إلى الاقتناع ، وليست المعجزات ولا الخوارق .

وحينما غضب أبو سفيان لمقالة خالد وقال ثائرًا : واللات والعزى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بقتلك يا خالد قبل محمد .

فأجاب خالد فى إصرار : فوالله إنه لحق على رغم من رغم .

فاندفع أبو سفيان نحوه ليقتله ، فحجزه عنه عكرمة بن أبى جهل ، وكان حاضراً ، وقال : مهلا يا أبا سفيان . . أنتم تقتلون خالدًا على رأى رآه . . والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم .

كان الصراع إذن صراع رأى . .

وكانت حجة الإسلام هى العقل والمنطق فى كل الأوقات ، ولم تكن المعجزات ولا الخوارق .

وهذا هو عكرمة بن أبى جهل ، وهو أشد الشباب كفرًا وخصومة لمحمد ، بعد أن قتل أبوه بيد المسلمين فى بدر ، يقول فى خوف وخشية : والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبع أهل مكة محمدًا كلهم .

وقد خاف الحجة البينة التى رآها تكتسح الناس اكتساحاً . . ولم يخش من محمد معجزة ولا كرامة .

وإذا كانت هناك معجزة فى الموضوع . . فإنها لم تكن شق بحر أو إحياء ميت أو شفاء أبرص أو إخراج حية من عصا .

وإنما كانت المعجزة هى ذات محمد نفسه التى جمعت الكمالات وبلغت فى كل كمال ذروته .

كان محمد ذاته كسلوك وخلق وسيرة هو المعجزة التى تسعى على الأرض .

وإن تبلغ ذاتك الكمال فى صفة واحدة ، فتبز فيها وتتفوق على أقرانك ، فهذه هى العبقرية .

إن تبلغ الذروة فى الخطابة فأنت ديموستن . . وإن تبلغ الذروة فى الشعر فأنت بيرون ، وإن تبلغ الذروة فى الزعامة فأنت بركليس ، وإن تبلغ الذروة فى الحكمة فأنت لقمان ، وإن تبلغ القمة فى فنون الحرب فأنت نابليون ، وإن تبلغ الذروة فى التشريع فأنت سولون .

أما أن تكون كل هؤلاء ، وأن تمتحنك الأيام فى كل صفة فتبلغ فيها غاية المدى دون مدرسة أو معلم فهو الإعجاز بعينه . . وإذا حدث فإنه لا يفسر إلا بأنه نبوة ومدد وعون من الله الوهاب وحده .

وهذا هو برهانى على نبوة محمد .

فها أنت ذا أمام رجل إذا تحدث كان أبلغ البلغاء ، وإذا نطق كان أفصح الفصحاء . . لا ينطق عن هوى ، ولا يتحدث عن حفيظة ، وإنما عن حكمة الحكيم وبصر البصير الملهم . . وهذه أحاديثه المجموعة تشهد لنا بأنها من جوامع الكلم .

فإذا ذهب هذا المحدث الهادئ ليحارب رأينا فيه مقاتلا فذًّا ومخططاً عسكريًّا من الطراز الأول .

فهذا هو ينظم جيشه فى معركة أُحُد فيضع خمسين من الرماة على شعب من الجبل فى خلفية الجيش المقاتل وهو يقول لهم :

« احموا لنا ظهورنا . . والزموا مكانكم لا تبرحوه ، وإن رأيتمونا ندخل معسكر العدو فنهزمهم فلا تفارقوا مكانكم . . وإن رأيتموهم يحملون علينا فيغلبوننا ويقتلوننا فلا تدافعوا عنا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ،

فإن الخيل لا تقدم على النبل » .

ونعلم الآن أن انكسار المسلمين فى أحد كان بسبب مخالفة هؤلاء الرماة لتعليمات الرسول ونزولهم من الجبل لاهتبال الغنائم حينما رأوا فرار الكفار . . فالتف خالد بن الوليد (وكان قائد الكفار فى ذلك الوقت) وهاجم جيش المسلمين من الخلف وقلب انتصار المسلمين إلى هزيمة .

فماذا يفعل هذا القائد المهزوم .

إننا نرى صورة أخرى من صور الجرأة وبُعْد النظر والمخاطرة الدقيقة المحسوبة . . فما تكاد تمر أربع وعشرون ساعة حتى نراه يجمع هذا الجيش من الجرحى والهلكى ليتبع جيش المنتصرين العائد إلى مكة . . فيقع فى روع أبى سفيان قائد الكفار أن محمداً جاء من المدينة بمدد جديد . . ويتنادى الجنود أن محمداً قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم ير مثله قط ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه . . وكلهم أشد ما يكون طلبا للثأر .

ويبلغ جيش الجرحى حمراء الأسد فيوقدون النيران ثلاث ليال متتابعة موهمين الأعداء أنهم ينظمون أنفسهم لوثبة تقضى على جيشهم . . فتتزعزع همة أبى سفيان وتتضعضع ، وينسحب بجيشه مسرعاً إلى مكه خيفة أن يفقد انتصاره الذى كسبه سهلا فى أحد . .

ويعود الجيش المكسور وقد استردّ شيئاً من حميته وكرامته التى أهدرتها الهزيمة . . ولا يعرف وزن هذا الكسب النفسى إلا كل عسكرى محترف . .

هذه العملية الجريئة بكل ما تضمنته من مخاطرة مهلكة تكشف عن مخطط من طراز فريد .

ثم إذا جدّ الجد والتهب الموقف نجد هذا المخطط العبقرى الذى مكانه

المؤخرة يتحول فجأة ليقف فى المقدمة والنبل والحراب والسيوف تزمجر من حوله والموت يحصد الرقاب وهو ثابت كالجبل ، وهذه وقفة النبى يوم حنين . . يوم أمطر الأعداء جيش المسلمين بوابل من النبل من أعالى الجبل فى عماية الفجر ، فأنزلوا الفوضى والاضطراب فى صفوفهم ، فكروا فرارًا وقد أطلقوا سيقانهم للريح حتى قال أبو سفيان ساخرًا : لن تنتهى هزيمتهم دون البحر . وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة فى شماتة : اليوم أدرك ثأرى من محمد .

فماذا فعل محمد ، وهو يرى انكسار اثنى عشر ألف محارب مسلم ، وضياع عشرين سنة من الكفاح ، فى غمضة عين ؟ . . لقد ثبت وسط طوفان الأرجل التى تهرول مذعورة من حوله . . وسمّر رجليه فى الأرض ، وجيش العدو ينزل من أعالى الجبل فى ألوف يطارد المسلمين ويجندلهم صرعى من يمين وشمال . . والنبى يحاول أن يندفع فى وجه السيل الجارف ويحث بغلته البيضاء ، وابن الحارث بن عبد المطلب يردّ خطامها خوفاً على النبى ، والعباس بن عبد المطلب يصيح بصوته الجهورى فى الهاربين : يا معشر الأنصار . . يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة . . إن محمداً حيّ ، فهلموا .

ومحمد صامد وسط الموت يصيح : إلى أين ؟ . . إلى أين أيها الناس ؟ . . أنا النبى لا كذب . . اثبتوا . .

وتمر لحظة هائلة بوزن التاريخ كله .

لحظة تتغير فيها المصاير .

وتمسّ القلوب وقفة النبى القائد أمام الموت .

ويعود الهاربون يتصايحون من كل جانب . . لَبَّيْك . . لبيك يا نبى الله ، ويلوى كل رجل عنان فرسه ليقتحم المعركة وتلتحم الأسنّة .

ويذكر الرواة فناء قبيلتين من القبائل المسلمة فى هذا الالتحام عن آخرهما وانقلاب الهزيمة إثر ذلك إلى انتصار ساحق . . وأحصى المسلمون من الغنائم ذلك اليوم اثنين وعشرين ألفًا من الإبل ، وأربعين ألفاً من الشاء ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وستة آلاف أسير نقلوا محروسين إلى الجعرانة .

ولتعلم أى نوع من الأعداء انكسر فى ذلك اليوم . . يكفى أن تسمع هذا الحوار الذى دار بين المسلم الذى جرد سيفه ليقطع رقبة عدوه فلم يغن السيف شيئاً . . فقال الكافر فى ثبات وصلف وسخرية .

بئس ما سلّحتك أمك ! . . خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أضرب به الرجال . . ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرُبّ يوم والله قد منعت فيه نساءك .

كان هؤلاء الأعداء رجالا كل واحد بألف . . ولم يكن الإسلام يحارب أشباحاً بل صناديد .

ولم يخف النبى إعجابه بقائد الأعداء مالك بن عوف ، وكان قد هرب بعد الهزيمة ، وتحصّن فى حصون الطائف مع بقية من جيشه ، فأرسل إليه رسولا من أهله يبلغه إن أتاه مسلمًا أن يردّ عليه السبايا من أهله كما يرد عليه ماله وعليه زيادة مائة من الإبل . . وما كاد مالك يعلم بهذا الوعد السخىّ حتى أسرج فرسه خلسة وانسل عائداً إلى النبى ، فأعلن إسلامه ،

وأخذ أهله وماله والمائة من الإبل .

وهنا حنكة السياسىّ الخبير الذى يحاول أن يكسب القلوب والأرواح لا الرقاب والغنائم . . هنا القائد العظيم الذى يعرف أقدار الرجال ولو كانوا أعداءه .

ثم ماذا كان موقف محمد من هذا السيل من الغنائم وقد تكالب عليه المسلمون يتخاطفونه ؟

لقد وقف مغضباً إلى جانب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها وقال :

أيها الناس ، والله ما لى فى هذه الغنائم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، ردّوا علىّ ردائى . أيها الناس ، فوالله لو أن لكم بعدد شجر تهامة إبلا لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً .

ثم إنه نزل عن نصيبه لهؤلاء الذين كانوا منذ أيام ألدّ أعدائه . . فأعطى مائة من الإبل أبا سفيان وابنه معاوية والحارث بن كلدة والحارث ابن هشام وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى والأشراف ورؤساء العشائر ممن أراد أن يؤلف قلوبهم بعد فتح مكة ، وأعطى خمسين من الإبل آخرين أقل من هؤلاء شأناً ومكانة . . مما جعل الأنصار يتهامسون. .سوف يوزع والله محمد الغنائم على قومه .

وحينما سمع محمد بهذا التهامس الذى يدور وراء ظهره جمع الأنصار ليواجههم بهذه المقالة البليغة :

يا معشر الأنصار . . ما هذا الذى سمعته عنكم . . ألم آتكم ضالين فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى والله .

– ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟

– بماذا نجيبك يا رسول الله ؟

– أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم ولصُدِّقتم ، أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك وطريدًا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . . استكثرتم يا معشر الأنصار لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم . . ألا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله فى رحالكم . . فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت واحداً من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعبًا وسلكت الأنصار شِعبًا لسلكت شِعب الأنصار . . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

قال النبي هذه الكلمات البليغة فى تأثر ؛ فبكى الأنصار وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظًّا .

وبذلك أظهر النبي زهده فى هذا المال الوافر الذى غنم من حنين ، وجعله وسيلة ليكسب به قلوب هؤلاء الذين كانوا منذ أيام كفارًا ، ليروا فى الدين الجديد وسيلة إلى ربح الدنيا وربح الآخرة .

وهنا منتهى بعد النظر والبصيرة بقلوب الرجال وحسن السياسة للجموع المختلفة المصالح والأهواء . ثم ينزل القرآن ليصف هذه المعركة التى انقبلت من هزيمة إلى نصر ، ويكشف بعض أسرارها .

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » . (التوبه : ٢٥ ، ٢٦)

تلك السكينة التى ثبّتت الرسول والمؤمنين كانت مدداً من الله . . ولقد أنزل مع تلك السكينة جنودًا لم يروها . .

مَن هم هؤلاء الجنود ؟

ذلك هو الغيب .

وإن مثل تلك المعركة الهائلة لا يمكن أن يقتنع العقل بتحولاتها السريعة الفجائية ، دون أن يتصوّر أن هناك سنداً مجهولا من الغيب كان يعمل من وراء حجاب .

ومثلها معركة بدر حينما التقى ثلثمائة مسلم ، ليس فيهم من عدة الحرب إلا ثلاثة أفراس وألف من كفار قريش فى الحديد والدروع يتقدمهم أكثر من مائة فارس على خيلهم .

ومحمد يدعو ويبتهل ممدود الذراعين إلى ربه : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . . اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » .

ولا يزال يهتف بربه حتى سقط رداؤه .

أى عقل يمكن أن يتصور هذه القلة بسلاحها البدائى تهزم هذه الكثرة فى الحديد والدروع دون سند من الغيب .

ويحكى القرآن كاشفاً بعض أسرار هذه المعركة :

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ

مِـنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِين . وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الْحَكِيمِ » . (آل عمران : ١٢٣ – ١٢٦)

وفى موضع آخر :

« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » . (الأنفال : ١٢)

وفى آية أخرى :

« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ اللهَ رمى »
(الأنفال : ١٧)

هذه بعض أسرار الغيب ، وبعض أسرار التأييد الإلهى حين ترتفع همم القلوب ، ولا تتكافأ القوى المادية بعضها أمام بعض حينئذ يأتى المدد الخفىّ ، فيحقق عدالة الله الأزلية من حيث لا ترى العين ولا تسمع الأذن .

وهذا محمد النبي وقد اجتمعت فيه كمالات بلغ فى كل منها الذروة ، فهو العابد المبتهل الذى يذوب خشوعاً ويفنى حبًّا ، وهو المقاتل الصنديد الذى يتعرض لجحافل الموت ثابت القدم وألوف الأبطال والفرسان يفرون أمامه كالجرذان ، وهو المخطط العبقرىّ الذى يرسم الخطط فيتفوق على أهل الحرفة ، وهو السياسى الحاذق الذى يحرّك المجاميع ويمسك بمقاليد المشاعر بمهارة المايسترو المبدع ، وهو المحدّث الذى ينطق بجوامع الكلم ، وهو الأب والزوج والصديق ، وهو صاحب الدعوة الذى يقيم نظاماً وينشئ دولة من عدم (من قبائل وشراذم متفرقة لا تعرف إلا قطع الطريق والثأر

والتفاخر بالأحساب والأنساب) ، وهو برزخ الأسرار المكاشف بالملكوت الذى يستمع إلى الله وملائكته كما نستمع نحن بعضنا إلى بعض بالغاً بذلك القمة فى علوم الظاهر وعلوم الباطن معاً وفى الوقت نفسه . . وهو الكريم الحليم الودود الرءوف الصبور الباش البسام اللطيف المعشر ، لا تمنعه الأعباء الجسام من ملاطفة الطفل والوليد فيحمله على كتفه راكعاً وساجداً وقائماً ، ولا من مغازلة زوجه فى حنان . . لا ينضب لعواطفه معين . . وكأنه يستمد من بحر . .

هذه الذات هى المعجزة . .

واجتماع هذه الكمالات فى ذات واحدة معجزة وليست عبقرية . . فالعبقرية هى أن تتفوق فى صفة واحدة وحسب . . أما أن تكون ذواتنا مجمع كمالات فهنا نبوة . . هنا أمر لا يمكن أن يكون إلا بمدد إلهى وعصمة وتوفيق وتمكين و إفاضة ممن عنده كنوز كل شىء .

وهذا برهانى على نبوة محمد . .

إننا أمام ذات متفردة تماماً ، مستوفية أسباب الكمال ، جامعة لأقصى الأطراف فى كل شىء ، فاعلة منفعلة ، نشيطة مؤثرة ، تصنع بطلا من كل رجل تلمسه ، وكأنما لها أثر السحر فى كل ما حولها ثم فيمن بعدها . . ثم فى التاريخ بطول أربعة عشر قرناً . . ثم فيما يستجد بعد ذلك من مستقبل إلى آخر الزمان .

نحن لسنا إذن أمام أبراهام لنكولن ، ولا أمام جيفارا كما تصور أصحابنا قصار النظر دعاة المادية الجدلية ودعاة العلمية بلا علمية .

نحن لسنا أمام مصلح اجتماعى . . ولا أمام ثورة إسبارتاكوس الاجتماعية .

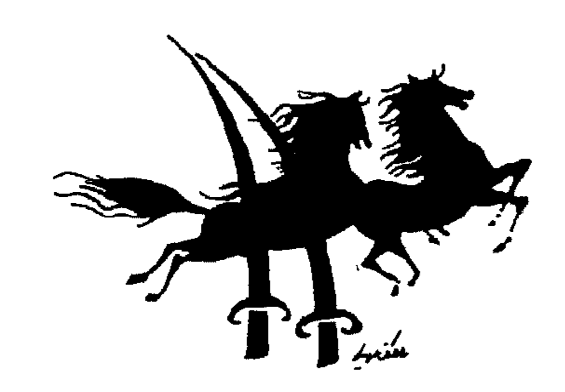
لا . . لقد هزلت تلك التشبيهات .

بل ظلموا أنفسهم وظلموا نبيهم . . ونقصوه ومـا قدروه . بل نحن أمام ذات . . تسبح وتقدس من أنشأها فى الأزل وبعثها للأبد رحمة للعالمين وصلى عليها فى عليائه ، تمجد وتبارك فى آياته :

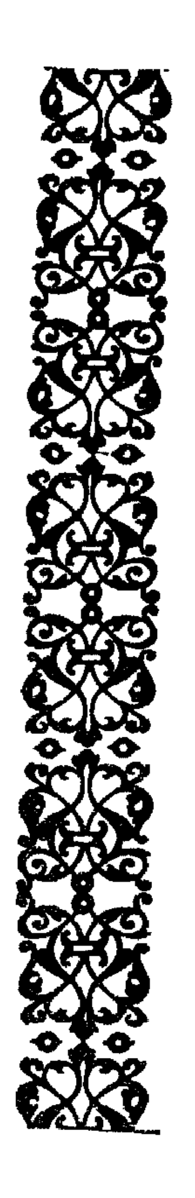
« إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » (الأحزاب : ٥٦)

صلوات الله عليك يا محمد . .

يا رحمة لنا إلى آخر الدهر .



ليست عظمة بل نبوّة





سوف نمضى نتصفح كتب السيرة وسوف نرى دونما حاجة إلى التدليل الخوارق أننا أمام رجل كان أكثر من مجرد رجل عظيم .

هذا الرجل الفطرى الأمى البدوى البسيط الذى يسعى بين الناس بلا تكلف . . يتكلم فى تلقائية لا يتصنع علماً ولا يتلو من كتاب ولا يتدارس مذهباً ولا يأخذ بأى سبب من أسباب العظمة الدنيوية . . لا جاه ولا لقب ولا شهادة جامعية ولا ميراث مادى .

أى خلط نقع فيه حينما نخلط بين مثل هذا الرجل وبين المفكرين أصحاب المذاهب والدارسين والمتكلفين والعاكفين على الكتب والمتخصصين من حملة الدبلومات والمهيجين السياسيين أصحاب الأغراض والماكرين العظام الذين قلبوا الدنيا وخطفوا أضواء التاريخ لفترة من زمان .

ها هنا شىء مختلف تماماً .

ومن حكمة التدبير الإلهى أن يختار الله لرسالته هذه الفطرة البسيطة البدوية ليلقى إليها بكلماته حتى لا تتهم بأنها كانت تأتى بتلك الكلمات اجتهاداً .

وإن الكلمات لتأتيه فتغير من كيمياوية جسده تماماً وكأنما هي صدمة قاهرة لا يملك لها دفعاً . فيأخذه ما يشبه الغيبوبة ويتفصد جبينه عرقاً ويثقل بدنه حتى لتنيخ البعير من ثقله الهائل إذا كان راكباً وهى ترغى .

فإذا انفصم عنه الوحى عاد لطبيعته لفوره دونما أثر من جهد ليتلو على الناس عجباً .

وهو أمر على نقيض الصرع (وهى التهمة التى ألصقها به المستشرقون للحط من قدره) فالصرع يخرب الجسد ثم يترك الذاكرة ممسوحة تماماً ليس فيها شىء ، والبدن فى حالة إعياء تام يسلم صاحبه إلى نوم عميق أو إلى يقظة تختلط فيها النوايا الإجرامية بازدواج الشخصية . . هذا ما يعرفه الطب من الصرع . . تخريب كامل لا يعقبه أى نوع من أنواع القدرة وانقطاع لخيط الحياة مع العجز وفقدان السيطرة على جميع الأفعال والأقوال .

وما كان هذا حال محمد الذى كان مثالا للانتباه واليقظة والفطانة واكتمال البدن ، والسلامة من جميع العلل والقدرة النفسية والجسدية على تحمل أضعاف ما يتحمله الرجل العادى من أعباء ، وعلى الإتيان بأضعاف ما يستطيعه الرجل العادى من أعمال . . وكأنه أمة فى رجل .

هذا مثال للتفوق والقدرة . . وذاك مثال للعجز وانحطاط القوى . . فأين وجه الشبه ؟

وإننا إذ نمضى فى كتب السيرة نتتبع هذه الذات المحمدية فى فعلها وانفعالها ، وفى أثرها البعيد المستمر فى هذا الواقع البدوى الفظ من حولها نراها تأتى من حولها سحراً . . فأيما لمستْ من إنسان أحالته نورا يمشى على الأرض ، وأيقظتْ فيه نوازع الخير وفجرّت فيه ينابيع المحبة

كيف كان عمر بن الخطاب وكيف أصبح بعد تلك اللمسة السحرية .

ذلك الرجل الغليظ الطبع العنيف الجاد السريع الغضب مدمن الخمر واللهو ، وأشد رجال قريش إيذاء للمسلمين ووقيعة فيهم .

لنتأمل تلك المشاهد فى سيناريو سريع متتابع .

المسلمون الأولون يعذّبون .

بلال العبد الحبشى وقد ألقاه مولاه على الرمل الملتهب لأنه أسلم وألقى على ظهره صخرة . . . والعبد يحترق ولا تخرج من فمة إلا كلمات . . أحد . . أحد . . أحد . متحملا العذاب فى سبيل دينه ، ويراه أبو بكر فيشتريه ثم يعتقه . . ويشترى آخرين كانوا يعذّبون مثله . . ويشترى جارية لعمر بن الخطاب كانت أسوأ حالا . . امرأة مسلمة تقيد ذراعاها إلى الخيل وتنزع من أكتافها لأنها رفضت أن ترجع عن إسلامها وتموت وهى تنزف .

والمسلمون من غير العبيد يضربون ويُصفعون ويُركَلون ويطارَدون .

وزوج أبى لهب تُلقى النجَس أمام بيت محمد والشوك فى طريقه . . وأبو جهل يلقى على ظهره أمعاء شاة مذبوحة وهو يصلى ، ويغرى الصِّبْية برجم بيته ويغرى الشعراء بهجائه .

ويشكو المسلمون ما يجدون من أذى لمحمد صلى الله عليه وسلم فيشير عليهم بأن يتفرقوا فى الأرض ، فلما يسألون أين . ، ينصح لهم بالذهاب إلى بلاد الحبشة المسيحية « فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهى أرض صِدْق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

ويتسللون مهاجرين وقد احتملوا متاعهم القليل أحد عشر رجلا وأربع

نساء يخرجون من مكة فى غلس الليل ليقيموا فى جوار النجاشى .

وعمر بن الخطاب يغلى غضباً ونقمة على هذا الرجل الذى فرق العرب وشتمهم وسفّه أحلامهم وسب آلهتهم . . ويبلغه أن محمداً مجتمع بأصحابه حمزة وأبى بكر وعلى بن أبى طالب فى بيت عند الصفا فيخرج متوشحاً بسيفه وقد استقر رأيه على قتل محمد لتستريح قريش وتعود إلى وحدتها فيلقاه نعيم ابن عبد الله فى الطريق ويعرف نيته فيقول له ناصحاً .

« والله لقد غشتك نفسك من نفسك يا عمر . أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على وجه الأرض وقد قتلت محمداً . . أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتصلح من أمرهم » ؟ !

مشيراً بذلك فى سخرية إلى أخت عمر فاطمة وزوجها سعيد بن زيد اللذين أسلما .

فلما عرف عمر خبرهما عاد مسرعًا ليقتحم عليهما البيت فإذا عندهما من يقرأ القرآن . . . فلما أحسوا دخوله أخفت فاطمة الصحيفة .

وقالَ عمر مغضَباً وهو يتلفت . . ما هذه الهينمة التى سمعت . . فلما أنكرا صاح بهما .

لقد علمت أنكما تابعتما محمداً على دينه .

ولطم سعيداً فلما قامت فاطمة تدفع عنه شج رأسها . . إذ ذاك صاح الزوجان :

نعم أسلمنا فافعل ما بدا لك .

واضطرب عمر وهو يرى الدم يسيل على وجه أخته . . ولانت ملامحه وأخذته بادرة عطف وسأل أخته أن تعطيه الصحيفة .

وبسطها ليقرأ تلك الكلمات النورانية الحانية « طَهَ . . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . . إلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ . تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمٰوَاتِ العُلَى . الرَّحْمٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَىٰ . لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ومَا تَحْتَ الثَّرَى » .

(طه : ١ — ٦)

ويتسلل النور إلى قلبه حتى أعمق الأعماق . ويغمغم وعيناه تدمعان . . والله إنه لكلام جميل .

ويخرج إلى حيث كان محمد وأصحابه عند الصفا فيستأذن ويعلن إسلامه .

وما حدث لعمر بعد ذلك وكيف أصبح يعرفه التاريخ بما لا يحتاج إلى بيان .

تلك هى اللمسة السحرية التى تشق البحر وتحيل العصا ثعباناً وتشفى الأبرص وتحيي موات النفوس وتبدل الحال غير الحال .

وقد آتى الله نبيه تلك القدرة المذهلة على تغيير الرجال وصهر معادن النفوس وإعادة سبكها فى أحلى الصور.

ولهذا أحبه أصحابه وافتدوه بالمهج والأرواح ، فقد رأوا نفوسهم تولد بين يديه وكأنهم كانوا عدماً فأحياهم .

وهذه قصة يوم الرجيع تحكى طرفاً من هذا الحب العجيب .

وكان ذلك بعد انكسار المسلمين فى أحد وقد حرك هذا الانكسار شماتة الشامتين وأيقظ الأضغان النائمة ، فجاء رهط من العرب يقولون لمحمد . . إن بين عشائرنا من يريد أن يسلم فابعث معنا نفراً من أصحابك

يعلموننا شرائع الإسلام ويقرئوننا القرآن . . فأرسل معهم ستة من كبار الصحابة ، فلما ابتعد الركب وبلغ ماء لهذيل بناحية تدعى الرجيع انقلب العرب وغدروا بأصحاب محمد، واستصرخوا بأعوان لهم من هذيل فانقضوا عليهم بالسيوف فى أيديهم ، فأخذ المسلمون أسيافهم ليدافعوا عن أنفسهم فقال رهط هذيل . إنا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم مكة .

هى إذن مصيبة أشد من القتل فإنهم يريدون بيعهم أسرى فى مكة لتمثل بهم قريش شرمثلة .

لا والله إن الموت لأهون .

وقاتل المسلمون فقتل منهم ثلاثة . . ورجم العرب المسلم الرابع حتى الموت ، وأخذوا الاثنين الباقيين أسيرين مكبلين بالسلاسل إلى مكة ، وهناك باعوهما رقيقاً . . فكان زيد بن الدثنة من نصيب صفوان بن أمية الذى آشتراه ليقتله ثأرًا لأبيه أمية بن خلف ، « الذى قتله المسلمون فى بدر » ، فدفع به إلى مولاه نسطاس ليقتله فلما قدم للموت سأله أبوسفيان :

أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدًا الآن عندنا فى مكانك تضرب عنقه وأنت فى أهلك . . ؟

قال زيد :

والله ما أحب أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى .

فعجب أبوسفيان وقال :

ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمدًا .

وقتل نسطاس زيداً فذهب شهيد الحب والإيمان والوفاء .

أما الأسير الثانى « خبيب » فحبسوه ثم خرجوا به ليصلبوه فقال لهم : ن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا . . فتركوه فركع ركعتين تمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم قائلا :

– أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة .

ورفعوه إلى خشبة فلما أوثقوه نظر إليهم بعين تقدح شرراً وصاح مغضباً :

اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً .

فأخذتهم الرجفة من صيحته واستلقوا على جنوبهم حذراً من أن تصيبهم لعنته ثم قتلوه .

وكان فى إمكان الأسيرين أن يفتدوا حياتهم بالارتداد عن الإسلام . . ولكنه الإيمان واليقين والحب للدين وصاحبه ولوجه الله الذى تهون فى سبيله الدنيا بما فيها .

وإننا لنسمع عن ذلك الحب من عروة بن مسعود الثقفى وكان سفيراً لقريش عند محمد فى مفاوضات الحديبية . . فلما رجع من سفارته حدث عن أمر محمد وأصحابه قائلا :

يا معشر قريش ، إنى جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، وإنهم لن يسلموه لشيء أبداً .

وليس هذا عن غرام من محمد بالتعظيم وإنما عن حب وفداء ، فقد

عرف محمد بالتواضع وكان يقول لأصحابه :

لا تقوموا لى كما يقوم الأعاجم يعظمون بعضهم بعضاً وكان يقول لهم :

لا تعظمونى كما عظمت النصارى ابن مريم .

وكان يعلمهم كيف يكون الجلوس للطعام فيقول :

إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد ، وآكل كما يأكل العبد ، ليتعلم المسلم كيف يجب أن تكون جلسته للطعام متواضعة لأنه يتلقى النعمة من ربه .

وقال للأعرابى الذى أخذته الهيبة من محضره .

هون عليك إنما أنا رجل من قريش كانت أمه تأكل القديد . . لم يكن التعظيم إذن هو حافز الأصحاب بل الحب والاحترام والثقة ، ثم هذه اللمسة السحرية من وراء الغيب فيما ألقى له الله من محبة فى قلوب الناس .

ألم يقل الله لموسى :

« وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى » (طه : ٣٩) ، فتحرك لموسى قلب فرعون حينما رآه وليداً فى المهد وهو الذى أمر بذبح جميع الأطفال والولدان .

هنا سند الغيب والتوفيق والتمكين من الله لنبيه فى الأرض وفى التاريخ وفى قلوب هؤلاء البدو الجفاة الغلاظ الذين يئدون بناتهم أفلاذ أكبادهم ويدفنونهم أحياء فى التراب .

وبدون هذا السند الإلهى لا نستطيع أن نفسر أموراً ووقائع كالخيال .

ماذا جرى يوم مؤتة .

لقد تلقى المسلمون أمراً من الرسول بالزحف إلى الشام لتأديب القبائل

غادرة التى كانت تهاجم السرايا التى يبعث بها لنشر الدين .

وخرج المسلمون فى ثلاثة آلاف . . على رأسهم زيد بن حارثة .

وقال لهم الرسول . . إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس إن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحه على الناس .

وخرج الجيش ومعه خالد بن الوليد متطوعاً ليظهر حسن بلائه وكانت تلك أول معركة له بعد إسلامه .

وأسرعوا يغذون السير ليدهموا أهل الشام على غرة على عادة النبى فى غزواته ، ولكن أنباء مسيرتهم كانت قد سبقتهم إلى شرحبيل عامل الروم ، فأخذ يجمع الجموع ويستنفر القبائل . . . وطلب مدداً من هرقل فأمده بجيش كبير ، وبلغ الجمع مائة ألف بقيادة تيودور أخى هرقل .

ولما بلغ أمر هذا الجمع أسماع المسلمين لبثوا ليلتين يفكرون وقال قائل . . نكتب للرسول فيمدنا بالرجال أو يأمرنا بالعودة . . وكاد هذا الرأى يسود لولا عبد الله بن رواحة وكان فارساً وشاعرًا يتقن صنعة القول فقام فيهم هاتفاً :

يا قوم والله إن التى تكرهون لهى التى خرجتم تطلبون . . الشهادة . . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . . فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة .

وامتدت عدوى الحماسة إلى الجيش . . فقال الناس :

صدق والله ابن رواحة .

ومضوا حتى إذا بلغوا تخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة وتحصنوا فيها . . وفى مؤتة بدأت معركة حامية

بين مائة ألف وبين ثلاثة آلاف مسلم .

حمل زيد بن ثابت راية النبي واندفع بها فى شجاعة أسطورية يقتحم موتا محتما ، وظل يقاتل فى استماتة حتى مزقته حراب العدو ، فتناول الراية من يده جعفر بن أبي طالب وكان شاباً وسيماً فى الثالثة والثلاثين ، وقاتل جعفر بالراية حتى إذا أحاط العدو بفرسه اقتحم عنها فعقرها ، واندفع بنفسه وسط الجيش اللجب يهوى بسيفه على الرؤوس حيثما وقع ، وكان اللواء بيمين جعفر فقطعت فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل ، ويقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة قطعته نصفين .

فلما قتل جعفر أخذ الراية ابن رواحه ثم تقدم بها مترددًا يشجع نفسه بأبيات من الشعر :

أقسمتُ يا نفسُ لَتَنْزِلِنَّـــــه

لَتَنْزِلِـــــــنَّ أو لَتُكْرَهِنَّهْ

إن أَجلَبَ الناسُ وشدُّوا الرَّنه

مالى أراكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّةَ .

ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل .

وأخذ الراية ثابت بن أرقم فقال . . يا معشر المسلمين . . اصطلحوا على رجل منكم . . قالوا أنت . . قال . . ما أنا بفاعل .

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد .

فأخذ خالد الراية مع ما رأى من تفرق صفوف المسلمين وتضعضع قوتهم المعنوية . . وكان خالد محارباً فذًا من الطراز الأول .

واقتحم خالد الصفوف .

وقال الذين شاهدوه إنه كان يمرق بينها كزوبعة فتفسح له الجند رعباً ، فما يكاد يخرج من حملته حتى تكون قد تجندلت رءوس على الجانبين .

وظل خالد ينقض ويداور حتى تكسرت فى يده تسعة سيوف .

وأمسكت الجموع أنفاسها رهبة .

واستمرت المناوشات حتى الليل . . وفى أثناء ذلك رسم خالد خطته . . فوزع عدداً كبيراً من جنوده فى خط طويل بالمؤخرة لتحدث جلبة شديدة وضوضاء إذا أصبح الصبح ليقع فى وهم العدو أنه قد جاء مدد من عند النبى .

وكان هذا هو ما تبادر إلى ذهن الأعداء بالفعل ، فتقاعدوا عن الهجوم وتلبثوا يحسبون للقتال ألف حساب . . وقد رأوا ما فعلته بهم حفنة قليلة من الرجال . . فماذا يكون الحال لو أن كل المسلمين كانوا من مثل هذا المعدن . . وماذا هم فاعلون وقد جاءهم المدد .

وأسعدهم أن جيش المسلمين لم يهجم بدوره ثم أراحهم أكثر أنه بدأ ينسحب عائداً إلى المدينة فلم يتعرضوا له بسوء .

وكانت هذه خطة خالد للانسحاب بثلاثة آلاف مقاتل من وجه مائة ألف فى كرامة .

ولكن القصة كانت لها بقية أكثر إدهاشا فهذا هو عروة بن عمر الجذامى وكان عربيًّا نصرانيًّا وقائدًا لفرقة من جيش الروم ، وقد افتتن افتتاناً شديداً بهؤلاء الصناديد الذين رآهم يقاتلون كالجن وقال فى نفسه . . لابد أن يكون هؤلاء المسلمون على حق . وما لبث أن أسلم وأعلن إسلامه فقبض عليه بأمر هرقل بتهمة الخيانة ، وخيره الروم بين الإعدام أو الإفراج إذا هو عاد

إلى المسيحية بل وعدوه أكثر من ذلك برده إلى قيادته فى الجيش فرفض عروة وأصر على إسلامه فقتل .

وكان من أثر ذلك أن انتشر الإسلام فى القبائل المتاخمة للعراق والشام حيث كان سلطان الروم فى ذروته .

ودخل فى الإسلام على هذه السمعة ألوف من قبائل أشجع وغطفان وعبس وذبيان وفزارة . . وألوف من قبائل سليم على رأسهم عباس بن مرداس .

والمسألة تحتاج إلى وقفة تأمل ، فإذا قلنا إن هؤلاء الصحابة العظام الذين أبلوا هذا البلاء قد خرجوا من مصنع محمد فما بال عروة والباقين ، إلا أن نقول إن هؤلاء الرجال الذين أشعت عليهم روح محمد العظيمة قد أصبحوا بدورهم قادرين على الإشعاع والتأثير فى الآخرين ، والآخرون بدورهم قادرون على التأثير فى غيرهم . . وكأنما ذلك القبس قد أصبح ينتقل من يد إلى يد « كما يقول الصوفية فى لغتهم إن الواحد منهم يأخذ القبضة عن شيخه فإذا اكتملت نفسه أصبح فى استطاعته أن يعطى القبضة لمريديه وهكذا » .

وأيًّا كان التفسير فإنك إذا أخذت تحسب بالورقة والقلم كيف حدثت هذه الأمور ، واستعنت بالعقل الإلكترونى وكافة وسائل الحساب الحديثة فإنك لا تستطيع أن تفسر كيف أن فردًا واحداً مضطهدًا مطارداً يؤثر هذا التأثير فى أفراد قلائل يعدون على الأصابع . . ثم يؤثر هؤلاء فى كثرة من مئات ثم ألوف تهزم الروم ثم الفرس « وكانتا دولتين كأمريكا وروسيا فى ذلك الوقت » يحدث كل هذا فى سنوات معدودة . . وابتداء من الصفر ومن بداوة مطلقة ومن عرب مشرذمين فى قبائل تقتل بعضها بعضًا بلا حضارة

وبلا علم يذكر . . وإنك لن تصل أبداً فى حسابك إلى تلك النتيجة الهائلة وستظل المعادلة ناقصة حتى تدخل فيها ذلك العامل الخفي . . عامل الغيب . . وسند المدد الإلهى من التمكين والتوفيق .

ماذا قال الله فى القرآن عن القائد المنتصر ذى القرنين الذي سار من مطلع الشمس إلى مغربها :

« إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً فَأَتْبَعَ سَبَباً » (الكهف : ٨٤) هذا التمكين وإيتاء الأسباب التى تتداعى إلى نتائجها سبباً تلو بسبب من عند مسبب الأسباب الذى بيده مقاليد كل شىء . . هو السر المحجب وراء كل نجاح .

وليس هذا التفكير من باب اللا معقول . . بل هو من باب المعقول ذاته . . فالعقل يفترض هذا العامل المجهول وإن لم يره .

نحن إذن أمام نبوة مؤيدة بسند الغيب ورجل انعقد له لواء التمكين الإلهى . . ولسنا أمام مصلح اجتماعى أو صاحب ثورة أو عظيم من عظماء الدنيا يعمل بالاجتهاد والعلم الكسبى .

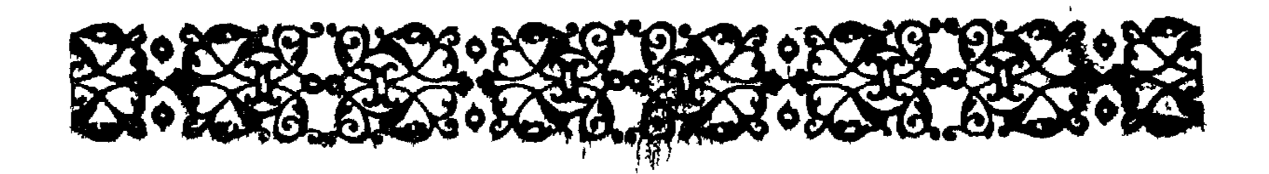
رأينا شواهد ذلك من أثر هذه النفس المحمدية المشعة فى النفوس من حولها . ثم أثر تلك النفوس فى غيرها حيث يجرى التبديل والتغيير بأسلوب درامى مذهل .

وتعالوا ندخل إلى نطاق أكثر خصوصية فى حياة محمد . . فى علاقته بنسائه . . لنجتلى هذا الأثر المشع للذات المحمدية بطريقة أوضح . . . ولنختر واحدة من نسائه على وجه التحديد هى صفية بنت زعيم اليهود فى شبه الجزيرة العربية وأعدى أعداء محمد . . حيي بن أخطب

وسوف يدعونا هذا إلى رواية قصة حرب النبى مع اليهود من بدايتها . .

روح مشعّة آسرة





ونحن فى حرب النبى مع اليهود أمام ملحمة مثيرة تعددت فصولها على مدى عشرين عاماً من السيرة النبوية .

ونحاول أن نسترجع ماجرى فى شريط من المشاهد المتتابعة .

هذا أبوبكر يتحدث فى وداعته ودماثته المعهودة إلى اليهودى فنحاص يدعوه إلى الإسلام فيجيب فنحاص :

والله يا أبا بكر مانحن بفقراء إلى الله وإنه إلينا لفقير . . ومانتضرع إليه بل هو الذى يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى . . ولو كان إلهكم غنيًّا مااستقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم محمد . . ينهانا عن الربا ثم يستقرضنا أموالنا لنفسه بالربا .

يشير بذلك إلى قول الله فى القرآن :

« مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرةً »

(البقرة : ٢٤٥)

ويلطمه أبوبكر على وجهه قائلاً فى غضب :

والله لولا العهد الذى بيننا لضربت عنقك ياعدو الله . ويشكوه

إلى النبي فينكر فنحاص قولته . . فينزل القرآن :

« لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ »

(آل عمران : ١٨١)

ويحاول اليهود الدس والوقيعة بين طوائف الأوس والخزرج من المسلمين ليشعلوها فتنة ، ويدعى بعضهم الإسلام ثم يمضى يدس فى الإسلام ماليس فيه . . ويحاول بعضهم ضرب الإسلام بالجدل وإثارة الشكوك ومحاصرة المسلمين بالأسئلة . . ماالله . . ما الروح . . إذا كان الله خلق الخلق فمن خلق الله . . فإذا التحم المسلمون بقريش فى غزوة بدر أشاعوا أن محمداً قتل . . فإذا انتصروا ذهب الشاعر اليهودى كعب ابن الأشرف إلى مكة يتباكى وينشد المراثى فى قتلى المشركين ويحرض العرب ويستنفر القبائل على محمد .

وكان محمد عليه الصلاة والسلام قد أخذ على اليهود عهداً بالسلام والموادعة فلما لجوا فى حربهم على الإسلام وأرسلوا بعضهم إلى محمد يقولون له بعد انتصار بدر .

« لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . . إنّا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » .

حينذاك لم يبق لمحمد إلا القتال فحاصرهم فى قينقاع خمسة عشر يوماً لا يدخل عليهم أحد بطعام حتى لم يبق لهم إلا التسليم والنزول على شروط محمد . . فحكم عليهم بالجلاء عن المدينة تاركين وراءهم سلاحهم ومهاجرين إلى أذرعات بالشام .

ثم يأتى بعد ذلك إنكسار المسلمين فى أُحد وتحرك يهود بنى النضير للمؤامرة على محمدوالخلاص منه بإلقاء حجر عليه وهو جالس يفاوضهم وقد أسند ظهره إلى حائط فى محلتهم .

ويقوم محمد قبل لحظة من تنفيذ المؤامرة ليبعث إليهم برسول معه كتاب . . أن اخرجوا من بلادى لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم بالغدر بى لقد أجلتكم عشراً فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه .

لكنهم يتلكئون بتحريض من عبد الله بن أبى بن سلول بأنه ناصرهم وتنقضى الأيام العشرة ولا يخرجون من ديارهم فيأخذ المسلمون سلاحهم فيقاتلونهم عشرين ليلة ويقطعون نخيلهم ويحرقونه . . وينتظر اليهود نصر ابن سلول فينكث وعده فيسألون محمداً الأمان على الأموال والدماء والذرية حتى يخرجوا من المدينة فيصالحهم محمد على أن يخرجوا منها ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ماشاءوا من مال وطعام وشراب وليس لهم غيره فيخرجون وقد خلفوا وراءهم مغانم كثيرة من غلال وسلاح بلغ خمسين درعاً وثلثمائة وأربعين سيفاً غير الأرض التى جعلها الرسول ملكاً عامًّا للمهاجرين وفقراء المسلمين .

ويمضى زعيمهم « حيى بن أخطب » يؤلب العرب على محمد ويستنفر قريشاً وغطفان وبنى مرة وبنى فزارة وأشجع وسليماً وأسداً وكل منهم له عند المسلمين ثأر فيجتمعون فى عشرة آلاف مقاتل ويخرجون إلى المدينة فى غزوة الأحزاب .

ويحفر محمد الخندق بينه وبين المهاجمين مطمئنًّا إلى أن ظهر المسلمين يحميه عهد الموادعة بينه وبين يهود بنى قريظة فى المدينة ولكن حيى ابن

أخطب يغرى إخوانه يهود بنى قريظة بنقض العهد مع محمد . . ويقول لزعيمهم كعب بن أسد وقد رآه متردداً :

ويحك ياكعب . . جئتك بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش وغطفان مع قادتها وسادتها ، وقد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه .

ويصف له قوة الأحزاب وعددها وعدتها وأنها لم يمنعها إلا الخندق ولولا ذلك لقضت على محمد فى سويعة .

ويتردد كعب لحظة سائلاً ؟

وماذا لو إرتدت الأحزاب وتركتنا لانتقام محمد فيجيبه حيى بن أخطب وهو يشد على يده حينذاك أدخل معكم حصونكم فأشارككم حظكم . . وتتحرك فى نفس كعب يهوديته فينقض عهده مع المسلمين ويخرج عن حيدته .

ويبعث إليه محمد يتشمم الأخبار ويقف على جلية الأمر فيرد عليه مغلظاً . . لاعهد بيننا وبينكم ولا عقد . . ويسب محمداً سباباً فاحشاً .

ويشتد أزر الأحزاب ويرسلون ثلاث كتائب تنحط على المسلمين كالسيل . . كتيبة ابن الأعور السلمى من فوق الوادى وكتيبة عيينة بن الحصن من الجنب وحشود أبى سفيان من قبل الخندق .

وفى هذا الموقف الرهيب تنزل الآيات :

« إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً . وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ

إِلاَّ غُرُوراً . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰأَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً »
(الأحزاب : ١٠ — ١٣)

ويبلغ الفزع بالمسلمين كل مبلغ .

ويتهامس بعضهم . . كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

ويلتمس بعض الفوارس من قريش ثغرة فى الخندق فينقضون منها ويسرع على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين فيأخذ عليهم الثغرة ويلتحم بفارس فرسان قريش عمرو بن عبد ود وتدور مبارزة رهيبة يفلق فيها على هامته بضربة سيف .

ويحاول نوفل بن عبدالله بن المغيرة أن يقتحم الخندق بقفزة من فرسه فيهوى مع فرسه ويتحطم .

وتغرب الشمس والمسلمون يضعون أيديهم على قلوبهم وقد أصبحوا جزيرة معزولة يحيطها العدوان من كل جانب . . اليهود من خلف والعرب من كل مكان ألوفاً مؤلفة فى الدروع والحديد .

وهنا يتفتق ذهن نعيم بن مسعود عن حيلة ماكرة (ولم يكن اليهود يعلمون أنه أسلم) فيذهب إلى اليهود ويخوفهم غدر الأحزاب وأنهم لن يقيموا على حصارهم طويلاً ويقترح عليهم أن يأخذوا رهائن من جيش الأحزاب يكونون بأيديهم ليقاتلوا محمداً وهم آمنون إلى أن قريشاً وغطفان لن تخذلهم .

ثم يذهب متسللاً تحت جنح الظلام إلى قريش ليقول لهم محذراً غدر يهود إنهم سيطلبون رهناً بحجة الاطمئنان وفى الحقيقة بهدف تقديم هذه

الرهن إلى محمد ليضرب أعناقهم ندماً على ما كان من نكثهم لعهده .

ويأخذ الشك بقلب أبي سفيان ويبعث إلى يهود بني قريظة يتعجل القتال . . فيتعلل هؤلاء بيوم السبت ويطلبون رهناً ليطمئنوا فلا يبقى لديك شك في كلام نعيم . . ويتحدث إلى غطفان فإذا هي مترددة في الإقدام على القتال (طمعاً في ما وعدها به محمد من إعطائها ثلث ثمار المدينة إن هي لم تظاهر على قتاله) .

وتهب عاصفة ثلجية باردة ويهطل المطر غزيراً ويقصف الرعد ويلمع البرق وتشتد الرياح فتقلع خيام الأحزاب وتكفأ قدورهم ويخيل إليهم أن المسلمين منقضون عليهم وينادى أبوسفيان :

يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . . لقد هلك الكراع والخف ونقض بنو قريظة العهد وبلغنا منهم مانكره ولقينا من شدة الريح ماترون فارتحلوا إني مرتحل . . وينادى طليحة بن خويلد . . النجاة . النجاة . . إن محمداً قد أرادكم بشر .

ويصبح الصبح وقد فر العرب عائذين إلى مكة وخلت الساحة إلا من المسلمين واليهود وجهاً لوجه .

ويضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمساً وعشرين ليلة فلا يجد اليهود بدًّا من التسليم ويختارون سعد بن معاذ الأوسي حكماً (وكان حليفاً قديماً من حلفائهم) فيأمرهم أن يضعوا السلاح فيفعلون فيحكم بقتل الرجال وتقسيم الأموال وسبي الذراري والنساء .

ويحفر المسلمون الخنادق ويجيئون باليهود أرسالاً فيضربون أعناقهم ويدفنونهم . . . وأول من تضرب عنقه على النطع رأس « حيي بن أخطب »

ولا يبقى من قلاع اليهود حول المدينة إلا خيبر ذات الحصون المنيعة . . أقوى الطوائف اليهودية بأساً وأوفرها مالاً وأكثرها سلاحاً . . ومصدر التهديد المستمر للدعوة من الشمال .

ويخرج محمد فى ألف وسبعمائة مقاتل بعد شهر من صلح الحديبية (الذى أمن به غدر قريش فى الجنوب لثلاث سنوات) طالباً خيبر . . وهو ينادى : الله أكبر خربت خيبر . . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

ويدور القتال شديداً مريراً أمام الحصن الأول ويبعث النبى أبا بكر إلى الحصن فيقاتل طوال يومه ثم يعود دون أن يفتحه فيبعث الرسول بعمر ابن الخطاب فيكون حظه كحظ أبى بكر فيدفع على بن أبى طالب وفى يده الراية . . فيمضى على بالراية فيلتحم باليهود فى مبارزة حامية فيضربه رجل من اليهود فيطرح ترسه من يده فيختطف على باباً كان عند الحصن فيتترس به ولم يزل يقاتل وهو فى يده حتى يفتح الحصن ويجعل من الباب قنطرة يدخل عليها المسلمون إلى الداخل .

ويسقط الحصن الأول بعد قتل قائده الحارث بن أبى زينب ومن قبله القائد سلام بن مشكم .

ويدور القتال شديداً أمام الحصن الثانى ويشح الطعام ولايجد المسلمون مايأكلون ويأذن لهم النبى بأكل لحوم الخيل ويخرج « مرحب » أحد فرسان اليهود يرتجز شعراً :

قد علمت خيبر أنى مرحب

شاكى السـلاح بَطل مجرب
أطعن أحياناً وحينـاً أضرب

فيتصدى له ابن مسلمة ويتبارزان ويكاد مرحب أن يقتله لولا أن يتقى مسلمة سيفه بالدرقة فيقع السيف فيها فتعض عليه فتمسكه فيضرب ابن مسلمة غريمه الضربة القاتلة .

ويتقدم المسلمون شبراً شبراً وهم يتبارزون رجلاً لرجل حتى تقع جميع الحصون فيطلب اليهود الصلح بعد أن غنم النبي كل أموالهم فيبقيهم على أرضهم على أن تؤول للمسلمين بحكم الفتح ويكون لليهود ثمارها بحكم العمل .

وبعد توقيع الصلح تهدى زينب بنت الحارث (زوجة قائد اليهود القتيل سلام بن مشكم وبنت القائد الآخر القتيل الحارث) النبي شاة مسمومة وقد علمت غرامه بأكل زند الشاة ويتناول منها الرسول مضغة فلا يسيغها ويلفظها قائلاً . . هذا العظم يخبرنى أنه مسموم ويأكل منها بشر بن البراء ويموت مسموماً ويدعو النبي زينب فتعترف قائلة :

لقد فعلت بقومى مالا يخفى عليك فقلت لنفسى إن كان ملكاً استرحنا منه وإن كان نبياً فسيخبره وحيه .

فعفا عنها النبي وقدر ما أصابها فى أبيها وزوجها .

وفى هذه المعركة وقعت صفية بنت حيي بن أخطب سبياً فأخذها النبي زوجة له (وهو فى عرف ذلك الزمان ترضية عظيمة أن يأخذ المنتصر ابنة المغلوب زوجاً ، لا سبياً) .

وأمسك المسلمون أنفاسهم . . فهذا النبي ولم يكد ينجو من مكيدة الشاة المسمومة يأخذ صفية زوجاً وأبوها حيي بن أخطب أول من ضرب عنقه

على النطع وقومها مجندلون صرعى بسيوف المسلمين ، ومن قبل كانت فى بنى قريظة حرب إبادة . . فكيف يأمن على نفسه أو يأمن المسلمون عليه هذه المرأة .

ومن هى صفية .

إنهم يقولون إن نسبها ينتمى إلى النبى هارون أخى موسى وإنها امرأة ذات إباء وكبرياء ولاتنسى الضيم . . وهذا زوجها كنانة بن الربيع لم تكد تمضى ساعات على قتله أمام حصون خيبر .

ويبيت أبو أيوب خالد بن زيد أمام خيمة العرس ساهراً متوشحاً سيفه . . حتى إذا أصبح الصبح رآه النبى يطوف بالخيمة فيقول له :

مالك يا أبا أيوب

فيقول الرجل :

يارسول الله خفت عليك من هذه المرأة لقد قتلت زوجها وأباها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك .

فيدعو له الرسول :

اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى .

وقارئ السيرة يقف حائراً مأخوذاً أمام هذا الزواج .

كيف يمكن أن تنمو المودة والرحمة عبر هذه الأضغان والمواجد . . ! ! ؟

وكتب السيرة تجمع كلها على أن صفية أحبت الرسول وأن الرسول أحبها وأنه كان يدفع عنها كيد حفصة وعائشة حينما يدعوانها باليهودية فتأتى إليه باكية فيمسح دموعها قائلاً . . بل تقولين لهما . . كيف تكونان خيراً منى وأبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد .

وفى مرض الرسول نراها تقف على فراشه هامسة فى دموعها :

– وددت والله يانبي الله أن الذى بك بى .

فتتغامز زوجات النبي فيقول لهنّ الرسول :

– مضمضن .

فيتساءلن فى دهشة :

– من أى شيء ؟

فيقول الرسول :

– من تغامزكن بها . . والله إنها لصادقة .

ويموت النبي ولو كان فى قلبها ضغن لأظهرته حينما انقسم المسلمون وظهرت الفتنة وتآمر الناس على عثمان بن عفان . . ولكنها كانت أول من سارع إلى عثمان لترد عنه فلقيها الأشتر وهى فى حجابها على بغلتها فضرب وجه البغلة وهو لايعرف راكبتها فصرخت به صفية :

– ويحك . . ردنى ولا تفضحنى .

وتروى كتب السيرة أنها أقامت جسراً بين منزلها وبين بيت عثمان لتبعث إليه بالطعام وهو محاصر .

إنها لم تحب النبي فقط بل أحبت الدين وافتدته إلى النسمة الأخيرة من عمرها .

وهنا يقف القارئ المتأمل لاهث الأنفاس متسائلاً وكيف . . كيف استطاع حبها أن يعبر ذلك البحر من الدم وأن يتغلب على يهوديتها وعنصريتها وارتباطها بقومها وأبيها وأهلها الذين سقطوا بسيف الإسلام ويد محمد .

هنا لاتجد جواباً . . إلا . . محمد . . وروحه المشعة الآسرة

وقلبه الطيب النبيل . . وتلك القوة القاهرة وذلك المدد الإلهى الذى أمده الله به يغزو به قلوب أعدائه فيطهرها من الشر والغل ويستصفى منها أحلى ما فيها . . هنا النبوة هى التى تفسر لا العظمة فنحن أمام قدرة غير بشرية .

وحكاية صفية تدحض التهمة التى اتهم بها النبى فى أن علاقته بزوجاته كانت شهوة وأن زواجه من تسع زوجات كان شهوة . . فالشهوة لاتطهر النفوس أبداً بل تزيدها ظلاماً . . إنما نحن أمام مودة ومروءة وحنان ورأفة . . وما كان زواج محمد بزوجاته إلا عطاء للمودة وتحملاً للأعباء ، فكان يضم الواحده ومعها عيالها وكلهن كن متزوجات ماعدا عائشة . . فأى حمل وأى أعباء ، وإن الواحد منا ليعانى من إزعاج امرأة واحدة وعيالها فيضيق صدره ويخرج عن صوابه فما بال هذا القلب يسع تسع زوجات بعيالهن وغيرتهن ومكائدهن وإزعاجهن ومطالبهن المتناقضة . . أين الشهوة هنا . . إنه بلاء وابتلاء لهذا القلب وامتحان لعطائه السخى الذى لاينفد وللحلم والصبر والوداعة والبشاشة فى تلك النفس الكريمة التى لايعرف الغضب لها سبيلاً .

ودعونا نقف أمام هذه النفس المحمدية الصافية فى لحظة أخرى هائلة حينما نزل القرآن مؤكداً نفاق عبدالله بن أبى بن سلول ووقيعته بين الأوس والخزرج وفتنته بين المهاجرين والأنصار إذا يقول ابن سلول :

لقد كاثرنا المهاجرون فى ديارنا والله ما أحسبنا وإياهم إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك . أما والله لإن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ثم قال لمن حضر من قومه . . هذا مافعلتم بأنفسكم . . أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم . أما الله لو أمسكتم عنهم لتحولوا إلى غير دياركم .

وهى فتنة كان من الممكن أن تنسف البيت الإسلامى كله .

ونزل القرآن مؤكداً هذه الفتنة . . فأيقن الكل أن محمداً لابد مصدر أمره بقتل ابن سلول . .

فأسرع ولده عبدالله إلى النبى قائلاً :

يارسول الله إن كنت فاعلاً ذلك بأبى فمرنى به وأنا أحمل إليك رأسه . . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله . . فلا تدعنى نفسى أدع قاتل أبى يمشى فى الناس فاقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافراً فأدخل النار .

فبماذا أجاب النبى أمام هذا القلق النبيل بين حب الابن لأبيه وحبه لدينه لقد أجاب فى هدوء :

لا ياولدى . . إنا لانقتله بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا .

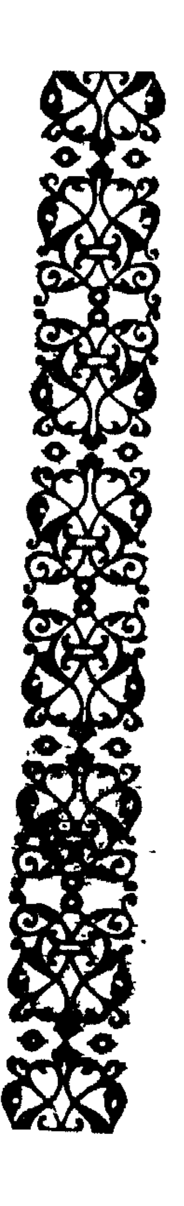
ولقد فعل النبى أكثر من ذلك . . فلما مات ابن سلول كفنه فى قميصه وصلى عليه ، واستغفر له . . فلما روجع فى ذلك . . قال فى حزن والله مايغنى عنه قميصى من الله شيئاً . . والله لو علمت أن استغفارى له أكثر من سبعين مرة ينجيه لاستغفرت له .

فمن يكون هذا إلا نبيًّا .

صلوات الله عليك يامحمد .



مسيرة كالإعصار





دعوة الإسلام هى القمة فى البساطة . . إنها الفطرة ذاتها بلا تكلف . .

لم يأخذ محمد عليه الصلاة والسلام الناس إلى متاهات لاهويته ولم يكلفهم انقلاباً فى نظام الحكم فى قريش وإنما أراد بهم إن يطهروا عقولهم من رجس الخضوع للأوثان وأن ينزهوا ربهم عن هذه الشركة المخجلة مع أصنام لا تسمع ولا ترى وهذه الشفاعة الوهمية لحجارة شائهة لا تملك لنفسها شيئاً .

كانت دعوته فى صميمها حرية وتحررًا فلا تلك الحجارة ولا الملائكة ولا الجن ولا المردة ولا النجوم بدافعة عن الإنسان ضرًّا أو جالبة له نفعاً فعليه أن يتحرر منها جميعاً ويطرحها خلفه لا يضرب عندها قداحاً ولا يذبح قرباناً ولا يدعو ولا يعتذر ولا يتوسل ولا يعبد إلا إلـهاً واحداً ذلك الذى ليس كمثله شىء .

وكانت دعوته علمية ففكرة الإلـه الواحد هى غاية ما يصل إليه التأمل الحق فى ظواهر الوجود ، فكل الأسباب تنتهى فى النهاية إلى سبب واحد هو محركها جميعًا .

وكانت دعوته خلقية تهدف إلى الخير والعدل والمحبة وتدعو إلى نجدة الفقير والمريض واليتيم والأرملة .

وكانت المرأة فى أوربا فى ذلك الوقت يضع رجلها على بطنها حزاماً حديديًّا له ترباس هو حزام العفة ليضمن وفاءها وكأنها قطعة أثاث . وكانت فى الجاهلية تدفن فى التراب طفلة وتباع كالمتاع كبيرة وكانت فى الهند تحرق على جثة زوجها الميت فجعل لها الإسلام حقوقاً وواجبات ، واحترمها طفلة وأمًّا وزوجة وحبيبة وشريكة عمر ، ولم ينقض محمد عليه الصلاة والسلام ما سبقه من أديان إبراهيم وموسى وعيسى بل أيدها وثبتها وباركها .

كان محمد يدعو إلى خير الجميع ولكنه اصطدم بمقاومة هائلة من الجميع .

وحينما نزلت آية الدعوة :

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين »
(٢١٤ — الشعراء)

صَعد محَمد الصَفا ونادى :

يا معشر قريش !

قالت قريش . . محمد على الصفا يهتف

وأقبلوا عليه يسألونه ما به .

قال . . أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقون .

قالوا . . نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبًا قط .

قال . . فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد يا بنى عبد المطلب ،

يابنى عبد مناف يابنى زهرة يابنى تيم ، يابنى مخزوم ، يابنى أسد . . إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين . . وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله .

فنهض أبولهب — وكان رجلاً سميناً سريع الانفعال فصاح :

تبًّا لك سائر هذا اليوم . . ألهذا جمعتنا ؟ !

وطالبوه بالمعجزات وبأن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً ويجعل لهم جنات وأنهارًا ، ويحيل الصفا والمروة ذهباً أو يحيي الموتى أو يسقط السماء عليهم كسفا ورجوماً أو ينزل عليهم كتاباً فى رق مسطور من السماء يشاهدونه بأعينهم ، أو يجلب لهم الله وملائكته .

ونزل القرآن :

« قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولا »

(الإسراء — ٩٣)

« قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنا إلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

(الأعراف : ١٨٨)

« قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ »

(الأنعام — ٥٠)

فاتهموه بالسحر والجنون والكهانة وأغروا به شعراءهم يهجونه ويقارعونه ودفعوا إليه السفهاء يرجمون بيته .

وكان ما يلقى أتباعه من الاضطهاد أضعاف ما يلقاه .

وتآمروا عليه فأعلن عمه أبو طالب حمايته .

ودعا أبو طالب بنى هاشم وبنى المطلب إلى حماية محمد من قريش فاستجابوا له جميعاً إلا أبا لهب فإنه لج فى عداوته وانضم إلى صفوف الخصوم .

وبدأت قصة من قصص الثبات والصمود والكفاح السلبي أمام التعذيب والاضطهاد .

هذا أبو طالب الذى يمنع محمدًا ويحميه يواجه طوفاناً من السخط ، وهذه قريش مجتمعة تذهب إلى الشيخ مهددة متوعدة :

– يا أبا طالب إن لك سنًّا وشرفاً ومنزلة فينا وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

ويضعف أبو طالب فيقول لمحمد :

أبق علىَّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق . . فيجاوب محمد فى ثبات عجيب :

يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

ويتأثر العم لهذا الثبات الفريد ويقبل على ابن أخيه مطمئناً :

اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء تكرهه أبداً .

وما تكاد تمضى أيام حتى يعود رهط قريش إلى محمد بوسيلة أخرى ليثنوه عن دعوته . . هذه المرة يفوضون عتبة بن ربيعة ليعرض على محمد عرضاً مغرياً . . وهذا عتبة يقول لمحمد :

يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت آلهتهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها . . إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد تشريفاً سودناك علينا فلا نقطع أمرًا دونك ، إن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًّا (شيئاً من الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ .

فلا يكاد يفرغ من قوله حتى يكتفى محمد بأن يتلو سورة السجدة . . إنهم ينطحون الصخر وسوف تدمى رءوسهم ولن يتحرك الصخر من مكانه ، ويهاجر بعض المسلمين ممن زادت عليهم وطأة الاضطهاد إلى الحبشة ويبقى محمد ثابتاً مع القلة القليلة أمام الطوفان .

وتتشاور قريش ويقر قرارها على سياسة جديدة لضرب محمد وأصحابه هى سياسة التجويع والمقاطعة والحصار . . ويكتبون كتابًا بالمقاطعة يعلقونه فى الكعبة ، إنه لا بيع بينهم ولا شراء ولا تزاوج ولا معاملة مع بنى هاشم وبنى المطلب وكل من يتبع محمداً أو يحميه .

واحتمى محمد وأهله وأصحابه فى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة يعانون الحصار والحرمان والجوع لا يصل إليهم الطعام إلا تهريباً ، ويحكى أحد الصحابة عن هذه الفترة أنه قد بلغ به الجوع ذات يوم أن عثرت يده بشىء رطب فألقى به فى فمه وازدرده دون أن ينظر ليه . . ولا يزال إلى اليوم لا يدرى ماذا كان ذلك الشىء .

ودامت المقاطعة ثلاث سنوات لم يكن يؤذن لمحمد فيها بالاختلاط بالناس إلا فى الأشهر الحرم .

وتحكى السيرة أنه جاءه فى تلك الأيام وفد من النصارى فجلسوا إليه وسألوه واستمعوا له فأسلموا وصدقوه فاغتاظ لذلك قريش وسبوهم قائلين :

« خيبكم الله من ركب بعثكم أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه » .

وقد يسأل سائل عن السر فى هذا اللدد والخصام والعناد والعداوة من قريش لمحمد وهو الذى لم يدعهم إلا إلى خير ولم ينازع أحدًا فى سيادته ، بل كان يقول « خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا » . . . وحينما دخل مكة فاتحاً بعد ذلك بسنوات لم ينزع أبا سفيان من مكان الشرف فى قومه بل ثبته فى مكانته وجعل للاجئ إلى بيت أبى سفيان كاللاجئ إلى الحرم .

لم إذن كل هذه الخصومة واللدد ؟

هى الكبرياء لمجرد الكبرياء . . وهذا أبوجهل يحكى عن نفسه .

تنازعنا نحن وبنوعبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء . . فمتى ندرك مثل هذه . . والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

إنها لم تعد مسألة حق وباطل وإنما أصبحت مسألة . . أنا . وهو . . مسألة أبى جهل وأبى لهب . . ولماذا لا يكون أبوجهل هو النبى . . ثم إن دين محمد كان سيكلفهم من أمرهم رهقاً . فإن الواحد منهم ليزنى ويسرق ويقتل

ثم يقدم رشوة من القرابين إلى الأصنام فينتهى كل شيء وينام قرير العين . . أما محمد فيهددهم بأنهم سيبعثون بعد موت ويقفون بين يدى عذاب شديد وحساب لا تضل فيه شاردة ولا واردة .

ويموت أبو طالب وتموت خديجة فى سنة واحدة وينهد الركن الشديد الذى يحتمى به محمد ويهون أمره على الناس حتى ليحثو السفهاء على رأسه التراب سخرية وتنكيلا . . فتغسل فاطمة عن رأسه التراب وهى تبكى .

ويخرج محمد إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف فيغرون به سفهاءهم ويسبونه ويرضخون أقدامه بالحجارة ، ويفر منهم لاجئاً إلى حائط لعتبة فيحتمى به ويتهاوى متعباً رافعاً بصره إلى السماء يتضرع :

اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى . . إلى غريب يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى . . إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى . . ولكن عافيتك أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك . . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك .

ويخرج إليه العبد عداس بقطف عنب فيمد محمد يده قائلا . . باسم الله . . ثم يأكل . . . فيقول عداس . هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد فيسأله محمد عن بلده ودينه . . فيقول نصرانى من نينوى . . فيقول النبى : من بلد الصالح يونس بن متى . . فيسأله عداس متعجباً . وما يدريك ما يونس بن متى . . فيقول محمد . . ذاك أخى كان نبيًّا وأنا نبى . . فيكب

عداس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه . . وعتبة بالباب يعجب من هذا الذى فعله العبد .

ويعرض محمد نفسه على قبائل العرب ، فيأتى كندة فى منازلها ، ويأتى كلباً فى منازلها ، ويأتى بنى حنيفة وبنى عامر وبنى صعصعة فلا يسمع له أحد ويردونه ردًا قبيحاً :

ويشترط بنو عامر أن يخلفوه على الأمر من بعده فلما يجيبهم . . أن الأمر لله يضعه حيث يشاء . . ينفضوا عنه .

فى هذا الظلام المتراكم يأتيه الله ببشارة الإسراء والمعراج ويستضيفه فى السموات العلى . . فلما يقول لقريش إنه أسرى به إلى بيت المقدس فى ليلة يتضاحكون ساخرين ويذهب أحدهم إلى أبى بكر ليقول له : إن صاحبك يزعم أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد فى ليلة . . فيقول الصديق . . إن كان قالها فقد صدق فإنه ليخبرنى أن القرآن ينزل عليه من سبع سموات فى ساعة زمان فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه .

ويصف محمد الطريق إلى بيت المقدس ويصف المسجد الأقصى ويصف ما رأى من عير فى الطريق فلا يخالف الواقع فى شىء .

وتأتى البشارة الثانية بإسلام نفر من الخزرج من أهل المدينة فى بيعة العقبة ومعاهدتهم محمدًا على مناصرته .

ويقول العباس بن عبادة الذى حضر هذه البيعة للقوم محذرًا :

يا معشر الخزرج . . أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل . . إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فدعوه فهو والله إن

فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فيجيب القوم :

إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف .

ويمدون الأيدى ويتبايعون :

بايعنا على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا . . وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم .

وكان ذلك فى جوف الليل فى شعب من شعاب العقبة والناس نيام لا يدرون ماذا يخبئ لهم المستقبل .

ويشتد أزر الأنصار فى المدينة ويهاجر إليهم المسلمون تباعاً . . ثم يهاجر محمد ذات ليلة مخالساً العيون التى تراقبه وقد ترك على بن أبى طالب مُسَجى فى برده الحضرمى الأخضر واصطحب أبا بكر إلى مخبأ غار ثور ثم إلى المدينة من طريق غير مطروق .

ويروى القرآن :

« إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

(التوبة : ٤٠)

ماهى تلك الجنود غير المرئية التى أيد الله بها نبيه

هل هى العناكب التى نسجت خيوطها على فم الغار أو الحمام الذى عشش على مدخله ، أو الملائكة التى ثبتت قلب محمد وصاحبه ، أو أشياء

أخرى مما لا نعرف ؟ ! تلك من أنباء الغيب ومن أسرار النبوة التى يتميز بها جهاد الأنبياء عن جهاد العظماء من الناس .

وإننا لنرى تلك العصبة من الأنصار التى بايعت النبي عند العقبة هى التى تشد الآن على يدى رسولها تؤكد له الولاء قبل وثبة بدر .

والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخَضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . . إنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُق فى اللقاء . . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .

ثم يشتعل القتال على ما وصفنا بين محمد وقريش وبين محمد واليهود وبين محمد وسائر العرب ويؤرخ التاريخ لغزوات بدر وأحد والخندق وبنى النضير وبنى قريظة وبنى المصطلق .

ويحفر الذين حاربوا أسماءهم فى ذاكرة الزمن ، ونتعرف على الذين جرحوا والذين ثبتوا والذين قتلوا والذين تخلفوا والذين قعدوا كل منهم نراه مسجلا بالاسم والنسب والقبيلة وكيف ومتى وأين سقط .

لم يمح الزمن شيئاً .

وتتواتر الكتب ليؤيد بعضها بعضاً وليرسم صورة مجسمة حية لتلك المسيرة العظيمة التى ساندها الرجال صفًّا واحداً وراء رجل يتقدم بأمر السماء .

وبين وقت وآخر كانت المسيرة تتوقف ليلتقط الزمن أنفاسه . . ومن تلك الوقفات المثيرة للتأمل كانت وقفة الحديبية وقد خرج محمد إلى مكة فى ألف وأربعمائة محرمين للعمرة لا يحملون سلاحاً إلا السيوف فى غمدها يسوقون الهدى أمامهم سبعين ناقة لينحروها عند الكعبة لا يقصدون قتالا ،

حتى إذا كان بعسفان صادف رجلا من بنى كعب فقال له :

إن قريشاً سمعت بمسيرك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور ونزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا ، وهذا خالد بن الوليد « وكان فى صف الكفار فى ذلك الوقت » فى خيلهم قد بلغوا كراع الغميم .

قال محمد :

يا ويح قريش . . لقد أهلكتهم الحرب . . ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين . . فما تظن بى قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثت به حتى يظهره الله أو تقطع تلك الرقبة .

ولبث لحظة مفكراً :

إنه لم يخرج إلى مكة غازياً بل محرماً وهو لم يتخذ للحرب عدتها .

وبلغ المسلمون الحديبية فبركت القصواء « ناقة النبى » وقال الرسول إنما حبسها حابس الفعل عن مكة . . والله ما تدعونى قريش إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

وقد انعقد عزمه على ألا يحارب احتراماً للشهر الحرام أن يسفك فيه دم .

ودارت المفاوضات وطالت محادثات الصلح والمسلمون من حول النبى يرونه قد أسرف فى التنازلات ، فيقول عمر لأبى بكر وقد ضاق بالأمر ذرعاً .

أو ليس هو برسول الله ؟ . . أو لسنا بالمسلمين ؟ فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ .

وأبو بكر يشتد على عمر لاعتراضه :

يا عمر الزم غرزك « أى الزم مكانك » فإنى أشهد أنه رسول الله .

والنبي عليه الصلاة والسلام يعلم من أمر اعتراض المسلمين ما يعلم فيقول فى صبر وحلم :

أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى .

ثم يبدأ حوار مثير عند كتابة المعاهدة . . فيدعو النبي على بن أبى طالب ويقول له اكتب . . بسم الله الرحمن الرحيم .

فيعترض مندوب قريش هاتفاً . . أمسك لا نعرف ذلك الرحمن الرحيم بل اكتب باسمك اللهم .

فيقول الرسول . . اكتب باسمك اللهم . . هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو .

فيقول سهيل . . أمسك . . لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

فيقول رسول الله لعلى . . أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، وتنص المعاهدة على هدنة ثلاث سنوات وعلى أن من أتى محمداً من قريش مسلماً بغير إذن وليه يرده عليهم ومن جاء قريشاً من رجال محمد مرتداً لم يردوه . . كما تنص على حق المسلمين فى زيارة الكعبة للعمرة والحج .

ورأى المسلمون فى تلك الشروط إسرافاً فى التنازل لقريش بدون مبرر .

ولكن المستقبل ما لبث أن كشف للمسلمين عن عمق هذه السياسة التى اتبعها النبي . . فقد خرج المسلمون الجدد من قريش مهاجرين إلى المدينة فردهم النبي وفاء بالمعاهدة . . فرأوا أن عودتهم إلى قريش ستكون

هلاكا لهم . . فألفوا عصبة من سبعين رجلا بقيادة أبى بصير وعسكروا فى « العيص » على ساحل البحر الأحمر يقطعون قوافل قريش إلى الشام . . مما جعل قريشاً تتقدم بنفسها وتطلب من النبى قبولهم فى المدينة وتطلب منه إلغاء بند المعاهدة الذى ينص على رد المسلمين الفارين من قريش .

ثم إن هذه المعاهدة كانت أول اعتراف بدولة المسلمين وبمحمد على رأسها زعيماً وليس كاهناً ولا مجنوناً ولا قاطع طريق . . كما أنها أعطت المسلمين الحق فى الحج والعمرة . . وأهم من ذلك أنها أعطتهم الأمان من جهة الجنوب فاستطاعوا أن يتفرغوا لتصفية اليهود أعدائهم فى الشمال ثم لإرهاب أكبر الأعداء . . الروم والفرس بغزوة مؤتة التى ذكرناها ، ثم بغزوة تبوك التى خرج فيها النبى فى أشهر القيظ فى جيش جرار يتقدمه عشرة آلاف فارس بلغ به تبوك . فانسحبت جيوش الروم مؤثرة السلامة . . وأقبل عاملهم على أيله الأمير يوحنا بن رؤبة وعلى صدره صليب من ذهب فقدم الهدايا للنبى ودفع الجزية وكتب له الرسول كتاب أمان :

بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا ابن رؤبة وأهل ايله سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر .

وعاد الجيش دون صدام مع الروم . . ولكنه ألقى للمسلمين المهابة فى قلوب سكان المنطقة وحكامها .

وهذا بعض ما أثمرته سياسة النبى الحكيمة فى صلح الحديبية .

وإنا لنرى النبى بعد ذلك يتفرغ لبعث الرسائل إلى الملوك والزعماء .

وها هو ذا يكتب إلى هرقل :

بسم الله الرحمن الرحيم . . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . . سلام على من اتبع الهدى . . أما بعد . . فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . . فإن توليت فإنما عليك إثمك وإثم رعيتك .

وندهش كيف يخاطب محمد هرقلا بهذه الثقة والصلابة . . وهو من هو فى ملكه وسلطانه . . ولكنها بصيرة النبى التى رأت فى هذا الملك العظيم نسيجاً أوهى من نسيج العنكبوت ، فهى عظمة بلا قيم وقوة مادية بلا روح تحفظها .

ألم يسقط ملك الروم بعد ذلك بسنوات أمام سيف خالد بن الوليد فى معركة اليرموك ، ويتبدد جيش من مليون مقاتل فى أربع وعشرين ساعة وكأنه هباء فى الهواء .

سبحان الله . .

أهو تخطيط أبراهام لنكولن أم مهارة جيفارا .

أم نحن أمام النبوة وجهاً لوجه حيث تعمل قوى الغيب مع قوى البشر وحيث يشع الروح العظيم المسجى فى المدينة على قلوب هؤلاء البدو فيدفعهم أمامه كالإعصار ، ويبلغ بهم القيروان والأندلس وشواطئ الأطلسى غرباً وشواطئ الفارسى شرقاً ومضيق الدردنيل شمالا فى لازمان . . لا يحملون رسالة دمار كما كان يفعل غزاة المغول والتتار . . وإنما يحملون مصاحف وحضارة ونورًا وحبًّا وخيرًا للجميع .

وكذب من زعم أن الإسلام دخل القلوب بالسيوف . . فماذا فعلت سيوف الطليان وقنابلهم وطائراتهم فى ليبيا . . إنها لم تخرج مسلماً واحدًا

عن دينه . . ولا استطاعت قنابل فرنسا وطائراتها وجيوشها أن تدخل ديناً فى تونس أو المغرب أو الجزائر ، فما زالت العروبة والإسلام هناك فى كل مكان حيث تركها عقبة بن نافع منذ أكثر من ألف عام .

إنما هنا النبوة فى جانب .

وفى الجانب الآخر العظمة الدنيوية بحدودها تبنى أمجاداً من زبد البحر . . ثم يذهب الزبد جفاء . . أما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

وتنقض قريش عهد الحديبية وتقتل نفراً من خزاعة كانوا قد أسلموا وذلك بتحريض من عكرمة بن أبى جهل . . ويذهب عمرو بن سالم الخزاعى إلى المدينة يستنصر النبى ويقص عليه ما حدث ولا يرى النبى رداً على هذا الغدر إلا فتح مكة .

ويخشى أبو سفيان عاقبة هذا النقض لعهد الحديبية فيذهب إلى المدينة ويحاول أن يلقى النبى ويدخل على ابنته « أم حبيبة » وكانت قد عادت من هجرة الحبشة ودخلت فى حريم النبى زوجة ، فتطوى أم حبيبة الفراش من أبيها حتى لا يجلس عليه فلما يسألها . . أطوته رغبة بأبيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها . . تجاوبه بل هو فراش الرسول عليه الصلاة والسلام وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه . . فيرد أبو سفيان مغضباً . . والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر .

ولا يجد أبو سفيان بين المسلمين من يستمع إليه فيعود إلى مكة وقد خابت سفارته وقد شعر أن محمداً لابد سائر على أعقابه لفتح مكة .

ويجهز النبى جيشاً من عشرة آلاف ويسير حتى يبلغ « مر الظهران » وقريش غارقة فى الجدل ماذا تصنع فى مواجهة محمد . . ويخرج أبو سفيان

فى حمى العباس بن عبد المطلب حتى يبلغ النبى « بنيق العقاب » ويعلن إسلامه .

ويزحف الجيش على مكة . . وأبوسفيان يرقب مسيره وهو واقف بمضيق الوادى عند مدخل الجبل إلى مكة ، تمر أمامه كتائب المسلمين آلافاً مؤلفة ، فما يروعه منها إلا الكتيبة الخضراء يحيط بمحمد فيها المهاجرون والأنصار فى دروع الحديد لا يرى منهم إلا الحَدَق . . فلما يتبين أمرهم يهمس لصاحبه . . يا عباس والله ما لأحد بهؤلاء طاقة . . والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً . . ثم ينطلق إلى قومه يصيح بأعلى صوته . . يا معشر قريش . . هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

ويدخل محمد مكة فى الخيل والحديد وقد حنى رأسه على ناقته ونكس بصره تواضعاً لربه . . يقول لأعداء الأمس الذين رجموه وعذبوه وقتلوا أصحابه :

يا معشر قريش . . ما ترون أنى فاعل بكم .

فيجيبون وبهم رجفة :

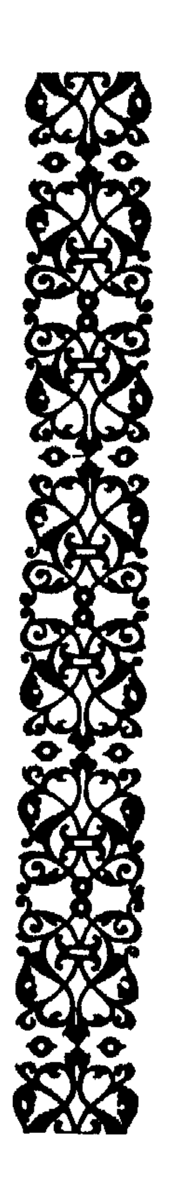
خيراً . . أخ كريم وابن أخ كريم .

فيقول :

اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وهذا هو النبى .

محمّد صَانع الرجَال





أكاد أتخيله عليه الصلاة والسلام من الأوصاف التى وصلتنا فى كتب السيرة . . وسطاً فى الطول . . ربعة . . ضخم الرأس . . واسع الجبين . . مدور الوجه . . أزهر اللون . . واسع العينين طويل الأهداب شديد سواد الحدقة . . مفلج الأسنان غزير اللحية . . بين حاجبيه اتصال خفيف . . وفى جبينه عرق يدره الغضب . . عريض الصدر . . كبير الكفين والقدمين . . خفيف اللحم متماسك البدن . . إذا مشى ألقى جسده إلى الأمام وسار فى خطو ثابت وقد خفض بصره إلى الأرض . . متواصل الأحزان . . دائم الفكرة . . طويل السكوت . . لا يتكلم فى غير حاجة . . فإذا تكلم أوجز وأبلغ . . دمث الطبع دون جفوة ودون رخاوة . . إذا التفت التفت جميعاً وإذا تكلم تكلم من كل فمه وأشداقه . . وإذا أشار أشار بكفه كلها وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى وإذا غضب أعرض وأشاح . . جُل ضحكه التبسم . . لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . . وإنما يغضب للحق وللدين وحينئذ لا يقوم لغضبه شيء . . ما ضرب خادماً ولا امرأة قط وما ضرب بيده شيئاً إلا أن يكون جهاداً فى سبيل الله .

تقول عائشة . . لم يمتلئ جوف النبي شبعًا قط وكان يطوى أكثر أيامه صائماً وكنت أقول له : نفسى لك الفدا لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك فيقول لى : يا عائشة : . ما لى وللدنيا إخوانى أولو العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم ، فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحى إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غداً دونهم ، وما من شيء هو أحب إلىّ من اللحاق بإخوانى وأخلائى .

ومع ذلك لم يكن يرفض الهدية تأتيه بالشهى من المأكل والناعم من الملبس ، ولكنة كان يرفض أن يسعى إلى هذا العيش اللين أو يفكر فيه أو ينشغل به . . ولهذا كان يربى نفسه ويروضها على الفقر والجوع والقصد فى المطالب والرغبات ، ليكون المثل والقدوة لما أراده الإسلام . . دين الاعتدال والتوسط . . فلا رهبانية ولا قتل للنفس . . ولا تهالك وإطلاق للشهوات . . وإنما توسط واعتدال . . وبذلك ينجو الإنسان من سيطرة نفسه ومن سيطرة الآخرين . . فلا يعود لأحد سيادة عليه . . وهذه هى الحرية . . أن يحرر نفسه من جميع المطالب فلا يعود يسمح لشهوته أن تذله لمطعم أو ملبس أومخلوق .

هذا الوسط . .

هذا الصراط المستقيم الدقيق أدق من الشعرة بين الإفراط والتفريط هو ما انفردت به الشريعة وما حققه النبي بسلوكه النادر .

وكان دائماً ذلك الرجل البسيط المتواضع . . تراه فى بيته يغسل ثوبه ويرقع بردته ويحلب شاته ويخصف نعله . . وتراه يأكل مع الخادم ويعود المريض ويعطى المحتاج . . وتراه وقد احتمل حفدته على كتفيه وراح يصلى .

وكان الحنان والحب مجسداً

أحب الإنسان والحيوان حتى النبات حنا عليه فكان يوصى بالشجر ألا يقطع . . حتى الجماد شمله بحبه فكان يقول عن جبل أحد . . هذا الجبل يحبنا ونحبه . . حتى تراب الأرض كان يمسح به وجهه متوضئاً فى حب وهو يقول : . . تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة .

وتروى السيرة أنه لما كسرت رباعيته وشج رأسه يوم أحد شق ذلك على أصحابه فقالوا : لو دعوت عليهم . . فقال . . إنى لم أبعث لعاناً ولكنى بعثت داعياً ورحمة . . اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون .

ولما جاء زيد بن سعنة يتقاضاه دينا عليه وجبذ ثوبه جبذة منكرة آخذاً مجامع ردائه مغلظاً له قائلا . . إنكم يا بنى عبد المطلب مُطْل فانتهره عمر . . ابتسم النبى قائلا . . أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج يا عمر . . تأمره بحسن التقاضى وتأمرنى بحسن القضاء . . ثم قال لقد بقى من أجله ثلاث (ثلاثة أيام) وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده لما روعه فكان هذا سبب إسلامه .

والقصص عن حلمه وعفوه ومحبته كثيرة لا تنتهى .

وكان دائماً ذلك الرجل الكريم الذى وصفه أصحابه بأنه ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر أبداً .

لم يحدث أن ادخر درهماً .

وقد مات كما هو معلوم ودرعه مرهونة عند يهودى .

وكان يلخص سنته فيقول :

المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب مذهبى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والحزن رفيقى ، والصبر ردائى ، والصدق شفيعى ، والعلم

سلاحى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة .

ذلك هو محمد عليه الصلاة والسلام النبى الأمى الذى تفوق على كل القارئين والكاتبين . . والشريف الذى قال عنه ربه . . وإنك لعلى خلق عظيم .

وكانت ثقافته هى ما قال لأبى بكر.

أدبنى ربى فأحسن تأديبى .

وكان بيت النبى فى المدينة من جريد يمسكه الطين وكانت بعض حجراته من حجارة مرصوصة وكانت جميعاً مسقوفة بالجريد . . أما سريره فخشبات مشدودة بالليف عليها حشية ليف .

وهذا جهاز فاطمة بنت النبى تصفه السيرة بأنه رحاءان وسقاءان ووسادة من ليف وبعض العطر والطيب . . وتروى السيرة أن زوج فاطمة على بن أبى طالب لم يستطع أن يستأجر لها خادماً لفقره فكان يساعدها فى أعمال البيت . . ونراهما يسألان النبى خادماً وقد عاد من إحدى غزواته بسبى وغنائم . . فيجيب النبى عليه الصلاة والسلام :

لا والله لا أعطيكما وأدع الفقراء من المسلمين تتلوى بطونهم لا يجدون ما يأكلون .

ثم ما يلبث أن يقبل عليهما فى الليل وقد انكمشا فى غطائها يرتجفان من البرد ، إذا غطيا رأسيهما بدت أقدامهما ، وإذا غطيا أقدامهما انكشفت رأساهما . . فيقومان للقائه فيهمس فى حنان . . مكانكما . . ثم يضيف مترفقًا . . ألا أخبركما بخير مما سألتمانى . . فيجيب الاثنان . . بلى يا رسول الله . . فيقول . . كلمات علمنيهن جبريل . . تسبحان الله

فى عقب كل صلاة عشراً وتحمدان عشراً وتكبران عشراً . . وإذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثاً وثلاثين وتحمدان ثلاثاً وثلاثين وتكبران ثلاثاً وثلاثين .

ويقول الإمام على . . فو الله ما تركتهن منذ علمنيهن

ذلك هو عطاء الأنبياء .

وإنا لنرى أبوة النبى عليه الصلاة والسلام فى ذلك الصحابى الذى جاء يطلب الإذن فى الجهاد فنراه يسأله . . ألك أبوان . . فيقول . . نعم فيجيبه . . ففيهما فجاهد . .

ونسمع نفس القصة من معاوية بن جاهمة السلمى يقول :

أتيت النبى عليه الصلاة والسلام فقلت له يا رسول الله إنى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة فإذا به يسألنى . .أحية أمك فأقول نعم . . فيجيب . . فارجع فبرها . . ثم إنى لآتية من الجانب الآخر ثم إنى لآتيه من أمامه فأعيد عليه سؤلى فيقول لى . . ويحك فالزم أمك فإن الجنة تحت قدميها .

ويروى أبو أمامة أن رجلا قال . . يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما فأجابه النبى . . هما جنتك ونارك .

ذلك هو النبى الأب الذى كان يسجد فيتسلق حفيده على ظهره فيطيل من سجدته حتى يقضى الطفل حاجته كراهية منه فى إزعاجه .

فإذا تحدث النبى فإنه لا ينطق عن الهوى ولا يأتى باللغو وإنما ينطق بالحكمة الخالصة .

يصف الجاحظ كلامه فيقول :

هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف . . لا يحتج إلا بالصدق ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطئ ولا يعجل . . لم يقم له خصم ولم يفحمه خطيب ، ولم يسمع الناس بكلام أعم نفعاً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم .

وكثير من كلامه عليه الصلاة والسلام يجرى مجرى الأمثال .

لن يهلك امرؤ بعد مشورة .

رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم .

ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس . . الصحة والفراغ .

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .

ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يديه .

ليس الشديد بالصرعة (بالقوى) إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب .

اليد العليا خير من اليد السفلى (أى الذى يعطى خير من الذى يأخذ) .

وقد عرف عن النبى السهولة واليسر والبعد عن المغالاة وطلب الاعتدال ، وكانت وصيته لسفرائه الذين بعث بهم ليفقهوا الناس فى الدين يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا ، وسددوا (اعتدلوا وتوسطوا) وقاربوا ، (أى قاربوا من الغاية ما استطعتم) .

« إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله فإن المنبت (المرهق نفسه فى السير) لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »
ومن ذلك أن رجلا حديث عهد بإسلام جاء النبى فقال له إنه لا يطيق الصلوات كلها و إنه يتعهد ببعضها ، فلم ينهه الرسول ، فتعجب الصحابة فقال لهم بعدما ذهب . . إذا تمكن الإيمان من قلبه فسيصليها جميعاً .

ومن خصائص الإسلام أنه لا يرى الخير الأمثل فى حياة الصوامع ولا يراه أيضاً فى لذات الواقع الهابطة ، وإنما هو يهذب الواقع ما استطاع ويمد منه الجسور ليصعد بها إلى الحياة المثلى خطوة خطوة دون إرهاق للفطرة والطبع . ولولا هذا الرفق واللين فى تعهد النفس ورياضتها لبقيت المثل فى أبراجها حبرا على ورق ولضاع الإنسان فى حضيض المادة كما تضيع المياة العذبة فى ثنايا الرمال (الدكتور بكرى شيخ أمين فى كتابه أدب الحديث النبوى) وجاء فى الحديث :

ما انتقم رسول الله لنفسه قط وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً .

جاء أعرابى إلى رسول الله وهو بين صحابته فأعطاه وسأله . . هل أحسنت فقال الأعرابى : لا أحسنت ولا أجملت . فقاموا إليه فقال لهم . . كفوا عنه فدخل منزله فأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئاً وسأله فأجابه . . جزاك الله من أهل العشيرة خيراً . . فقال الرسول إذا كانت الغداة وحضرت مع أصحابى فقل لهم ما قلت فقد أصبح فى نفوسهم شىء . . فقالها بحضورهم فذهب ما كانوا يجدون عليه . . ثم قال الرسول مثلى ومثل هذا الأعرابى كرجل له ناقة ضلت فأخذ الناس يهيجونها فقال . . خلوا بينى وبين ناقتى فأخذ

لها من قمام الأرض هوناً هوناً حتى استناخت وشد عليها راحلتها .

وفى الحديث الشريف :

سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله . . إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها فلا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . .

ومن كلماته البليغة .

يد الله مع الجماعة وإنما يصيب الذئب من الغنم الشاردة .

حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات .

لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به .

وقال للذى تشفع فى شأن المرأة المخزومية التى سرقت . . « إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » . وقال لصحابته ذات يوم . اتدرون من المفلس يوم القيامة قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . . فقال الرسول المفلس هو من يأتى يوم القيامة وقد شتم هذا ، وضرب هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، فيعطى هؤلاء من حسناته حتى إذا نفدت طرح عليه من خطاياهم ثم طرح فى النار .

وفى رواية مسلم أن النبى قال :

المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير . .

وفى إشادة النبى بالقوة توكيد على أن الإسلام فحولة وليس تخاذلا ورخاوة واستسلاماً . .

ويقول الرسول للذى سأله . . أوصنى مجيبا إياه فى كلمة واحدة . . لا تغضب ، فيكرر السائل سؤاله ثلاثاً فلا يزيد الرسول عن هذه الكلمة . . لا تغضب .

ويقول . .

تفكروا فى المخلوق ولا تفكروا فى الخالق فإن الله لا تحيط به الفكرة .

وعرف عن النبي أنه كان إذا استشهد بأبيات من الشعر كسر أوزانها عامداً فينطق بيت طرفة المشهور هكذا

ستبدى لك الأيـــام ما كنت جاهـــــلا

ويأتيك (من لم تزود) بالأخبـــــار

بدلا من تلاوته على وزنه الأصلى :

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويقول الرافعى فى هذا : إنه لم يمنع النبى من إقامة وزن الشعر إلا ما أنزل الله فى القرآن من منعه من إنشائه :

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

(يس : ٦٩)

فلو أنه أنشد الشعر على وزنه لأدركه الوجد به ولغلبت عليه فطرته القوية فمر فى الإنشاد وخرج بذلك لا محالة إلى الاتساع فيه وإلى أن يكون شاعراً ، ولو أنه تكلف الشعر لذهب مذاهب العرب ونافس فيها ثم لجاراهم فيما تُستوقد له الحمية وهذا أمر يدفع بعضه إلى بعض ثم لا يكون فى جملته إلا أن ينصرف عن الدعوة ثم يأتى بعد ذلك أصحابه وخلفاؤه فيأخذون فيما أخذ فيمضون على ما كان من أمرهم فى الجاهلية ، ويستطير

ذلك فى الناس ويستبد بهم ومتى استبد بهم لم تقم للإسلام قائمة .

ولكن عدم إنشاد النبي للشعر لم يكن يعنى عدم تذوقه . . فقد عرف عن النبي حسن تذوقه للشعر وطربه للقصيد الجيد . . وقد عفا عن كعب ابن زهير حينما أنشده لاميته المشهورة . . بانت سعـاد . . ورمى عليه بردته استحساناً ، كما كان يطرب إلى الخنساء فى شعرها عن أخيها صخر ويستزيدها قائلا . . هيا يا خناس . . وكان يدعو شاعره حسان بن ثابت ليرد على قصائد الوفود بالشعر .

إنما مُنع الرسول عن صنعة الشعر لا عن تذوقه . . صيانة لشخصه الكريم من التقليد فقد أراده الله أن يكون فريداً متفرداً فى عصره ، لا يجرى لسانه بتكلف ولا يصطنع الكلام اصطناعاً . . وطهر قلبه ليكون وعاء لكلماته الإلهية .

وإن الناقد الأديب الذواقة إذا استمع إلى الحديث النبوى وإلى القرآن ليدرك بذوقه أن كلا منهما يصدر من نبع مختلف وأنه لا يمكن أن يكون قائل الحديث هومؤلف القرآن . .

وفى ذلك يقول العارف بالله عبد العزيز الدباغ فى الإبريز :

كل من استمع إلى القرآن وأجرى معانيه على قلبه علم علماً ضرورياً أنه كلام الرب فالعظمة التى فيه والسطوة التى عليه ليست إلا عظمة الربوبية وسطوة الألوهية :

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ»

(العلق : ١)

هنا يتبادر إلى القلب . . أن المتكلم ذات عليا لها سطوة . . من العظمة

والسطوة والجلال فى الكلمات :

«اقْرأْ بِاسْمِ ربِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .»

(العلق : ١ — ٥)

وذلك الإيقاع الهائل فى العبارات .

«وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ المَاءُ وقُضِىَ الأَمْرُ»

(هود ٤٤) .

من هو الذى يلقى بهذه الأوامر الكونية فتستجيب له الأفلاك وتصدع بأمره السموات والأرض . .

إن كل كلمة هى أمر جلل

وسطوة هذه الكلمات لا يمكن أن تكون إلا عن سطوة صاحبها

وما أبعد الفارق بين هذا الأسلوب القرآنى وبين أسلوب الحديث النبوى .

وهناك أكثر من وجه من وجوه الإعجاز يتميز بها القرآن عن الحديث وقد أفردت لذلك باباً مطولا فى كتابى « حوار مع صديقى الملحد » فى الفصل . . « لماذا لا يكون القرآن من تأليف محمد » ولمن يريد مزيداً من التفاصيل فى الموضوع أن يعود إلى الكتاب .

ويبدو أن وقع القرآن على القلوب والآذان كان فى زمنه أمراً مختلفاً عما هو فى زماننا فقد كان الأعرابى إذا استمع إلى القرآن وقرعت العبارات القرآنية قلبه أناخ راحلته وشهد أن لا إله إلا الله وأسلم بجميع جوارحه . . كانت معجزة اللغة القرآنية بالنسبة لهذه السليقة العربية النقية أمراً جليًّا لا جدل فيه . .

ولكننا اليوم فقدنا السليقة العربية والفطرة اللغوية الأولى وصدأت الآذان والقلوب وأصبح الأمر فى حاجة إلى الاستدلال والبرهان .

وهذا ما فعله تقادم العهد وألف وأربعمائة سنة وبعدنا عن ينابيعنا اللغوية وجهلنا بأصولها .

* * *

بعد فتح مكة يخرج أبوبكر يحج فى ثلثمائة مسلم ويقف على بن أبى طالب فى الناس وهم يؤدون مناسك الحج بمنى وقد اختلط المشركون بالمسلمين يتلو عليهم سورة التوبة وفى هذه السورة نزلت أول آية صريحة تمنع المشركين من دخول المسجد الحرام :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّما الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » (التوبة : ٢٨) .

وقد صدق الله وعده فأغناهم الله من فضله ، وجعل من بلاد الحجاز أغنى دول العالم .

وقف على بن أبى طالب فى ذلك اليوم يصيح بالناس :

« أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته » .

ومن يومئذ لم يحج مشرك ولم يطف بالبيت عريان (كان المشركون يطوفون من قبل عرايا) ومن ذلك اليوم وضع الأساس الأول للدولة الإسلاميه .

وكان فى علم الله أن هذه الدولة الوليدة ستواجه أعتى دول الشرك والوثنية (الفرس والروم) وستحاصرها الأخطار من كل جانب وسيفرض عليها

القتال فرضاً فأمر المسلمين بالجهاد :
« وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً واعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » .
(التوبة : ٣٦)

* * *

وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة يسير النبى إلى مكة فى حجة الوداع على رأس مائة ألف تتجاوب الصحارى والوديان والجبال بهتافهم . . لبيك اللهم لبيك . . لبيك لا شريك لك لبيك . . يهدرون كالموج . . ويقف النبى يخطب الناس بعرفة ومن خلفه ربيعة بن أمية يردد ما يقوله على الناس بصوته الجهورى :

« أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً » .

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام .

وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت

وإن كل ربا موضوع وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله .

وإن كل دم فى الجاهلية موضوع .

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم .

فاعقلوا أيها الناس قولى وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً . . كتاب الله وسنة رسوله .

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه . . إن كل مسلم أخ للمسلم ولا يحل

لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلموا أنفسكم اللهم هل بلغت

(فتتجاوب الأصداء من كل صوت) . . نعم

فيقول . . اللهم فاشهد .

ويتلو الآية :

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً» (المائدة : ٣)

فيبكى أبو بكر وقد شعر أن أجل النبى قد اقترب .

ويغود النبى إلى المدينة ويبدأ بتجهيز جيش إلى الشام يضع على رأسه أسامة بن زيد . . فيقعده المرض .

وتزداد عليه الحمى فيطلب من زوجاته أن يصببن عليه مياه سبع قرب من سبعة آبار ثم يخرج إلى المسجد وقد عصب رأسه ويجلس على المنبر فيستغفر لقتلى أحد ويكثر الصلاة عليهم ثم يقول :

أيها الناس أنفذوا بعث أسامة فلعمرى إنه لخليق بالإمارة كما كان أبوه خليقاً بها من قبل . . (وقد كان هناك همس بين المسلمين بأن أسامة أصغر سناً من أن يختار لمثل هذا الجيش) .

ويصمت هنيهة يلتقط أنفاسه ثم يقول :

« إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله » .

وسكت والناس على رءوسهم الطير لا يفهمون ولكن أبا بكر يبكى لإدراكه معنى العبارة . . وإن النبى يريد بذلك نفسه وإن الله خيره بين الخلود فى الدنيا

والآخرة وبين الضيافة عنده فاختار مقام العندية مع ربه .

وينظر النبي إلى أبي بكر في حنان ويأمر بأن تغلق كل الأبواب المؤدية إلى المسجد ما عدا باب أبي بكر ويقول :

« إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة منه وإني لو كنت متخذاً من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . . ولكنها صحبة الإيمان والإخاء حتى يجمع الله بيننا عنده .

ثم يعود فيتلفت إلى أصحابه ليقول :

يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإنهم كانوا عيبتي (خاصتي وموضع سري) فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم .

وتشتد عليه الحمى فليزم بيته ويأمر أبا بكر بالصلاة بالناس . . ويغشى عليه من الحمى ثم يفيق وهو يعاني أشد الكرب . . ويبلل يده من إناء به ماء بارد إلى جواره ويمسح على وجهه وفاطمة إلى جواره تهمس . . واكرب أبتاه . . فيقول لها حانياً . . لا كرب على أبيك بعد اليوم .

وكان ببيته سبعة دنانير قبل مرضه فيأمر عائشة بإنفاقها صدقة وهو يقول :

ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه الدنانير . . نحن معاشر الأنبياء لا نورث . . ما تركناه صدقة .

وفي الصباح يتحامل على نفسه ويقوم إلى المسجد عاصباً رأسه مستنداً إلى ذراعي علي بن أبي طالب والفضل بن عباس فيدخل المسجد والناس يصلون فيجلس إلى يمين أبي بكر ويصلي قاعداً حتى إذا فرغ من صلاته استدار إلى الناس ليقول :

أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليقتصّ منى . . ومن كان له عندى درهم فهذا مالى فليأخذ حقه منه .

ويلتقط أنفاسه ثم يعود فيقول :

أيها الناس . . سعرت النار . . وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يصف بذلك ما ينتظر الإسلام من بعده .

ثم يعاوده الضعف الشديد .

ثم نراه فى لحظاته الأخيرة وقد وضع رأسه فى حجر عائشة وهو يغمغم . . اللهم أعنى على سكرات الموت .

وتروى عائشة الفصل الأخير من حياته :

وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول :

« بل الرفيق الأعلى من الجنة » .

لقد اختار الرفقة مع الله على الحياة المخلدة فى الدنيا والآخرة

ويموت محمد ،

ويقبل أبو بكر مسرعاً إلى بيت عائشة ويستأذن للدخول . . فتقول له عائشة . . لا حاجة لأحد اليوم بإذن . . فيدخل ليجد النبى مسجى عليه برد مخطط فيقبل عليه حتى يكشف وجهه ثم يلثم وجهه قائلا . .ما أطيبك حيًّا وميتاً . . ثم يعيد الرأس إلى الوسادة ويرد البرد على وجهه ويخرج إلى الناس الذين أنكروا موته فى الخارج وعلى رأسهم عمر يهدد كل من يقول بموت النبى .

ويقف أبو بكر فيهم ليقول بصوت ثابت :

أيها الناس . . من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . .

ثم يتلو قوله تعالى :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » (آل عمران : ١٤٤)

ولما يسمع عمر أبا بكر يتلو الآية يخر إلى الأرض ما تحمله رجلاه وقد أيقن أن رسول الله قد مات .

ويقف أبو بكر بعد أن تمت له البيعة ليقول تلك الكلمة العملاقة ، « أما بعد أيها الناس فقد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فاعينوني وإن أسأت فقوّموني . . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أعيد له حقه إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله . . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء . . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . . ».

وما أبعد الفارق بين هذا الكلام وبين تلك الخطبة الغاشمة التي يلقيها بعد ذلك الخليفة المنصور العباسي بعد أقل من قرنين من الزمان في نفس الموقف :

أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وقد جعلني الله عليه قفلا إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم ،

وإن شاء أن يقفلني أقفلني .

هذا حاكم مستبد جاء يحكم الناس بالحكم المطلق مستمدًّا سلطته من الحق المقدس كملوك العصور المظلمة فى أوربا الذين كانوا يستمدون سلطاتهم المطلقة من كرسى البابوية . . وطاغية يزور على الناس جاهلية جديدة ومادية غاشمة باسم الدين والدين منه براء .

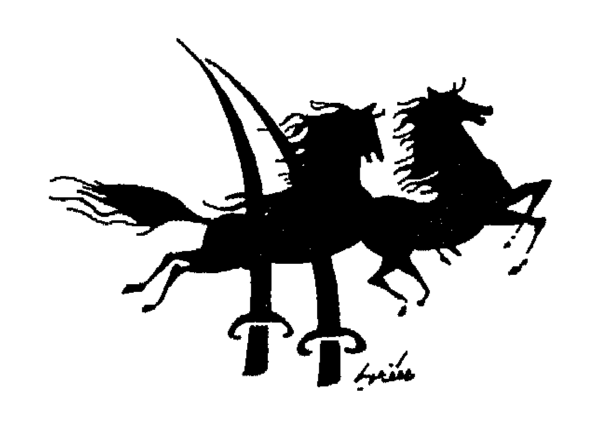
وذاك رجل آخر يخرج النور من شفتيه .

رجل شرب من نبع النبوة وخرج من مصنعها العظيم .

وتلك هى اللمسة السحرية وما تفعله فى الرجال . .

وذلك هو الإشعاع الروحى وما يفعله من نفخ الحياة فى الموتى وهو ما لا طاقة لعظيم من عظماء الدنيا أن يعمله بل هو النبى وحده المؤيد بقوى الغيب المحفوف بالعناية المحفوظ بالعصمة والتمكين

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبييائه وحسبى من الحياة أملا أن أتبع سنته وأدعو دعوته وأبعث فى لوائه وأحشر على قدمه وصلوات الله وسلامه على مولانا وسيدنا محمد إلى آخر الدهر .



فهرس

صدر للمؤلف

٤٥- لماذا رفضت الماركسية
٤٦- نقطة الغليان
٤٧- عصر القرود
٤٨- القرآن كائن حَيّ
٤٩- أكذوبة اليسار الإسلامى
٥٠- نار تحت الرماد
٥١- المسيخ الدجال
٥٢- أناشيد الإثم والبراءة
٥٣- جهنم الصغرى
٥٤- من أمريكا إلى الشاطئ الآخر
٥٥- أيها السادة اخلعوا الأقنعة
٥٦- الإسلام ... ما هو ؟
٥٧- هل هو عصر الجنون ؟
٥٨- وبدأ العد التنازلى
٥٩ - حقيقة البهائية
٦٠- السؤال الحائر
٦١- سقوط اليسار

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
روايات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
مسرحيات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
رحلات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢

حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

رقم الإيداع	١٩٩٧/٧٧٥٣	
الترقيم الدولى	977-02-5435-5	ISBN

١/٩٧/٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.



٠١٨٦٣٤/٠١